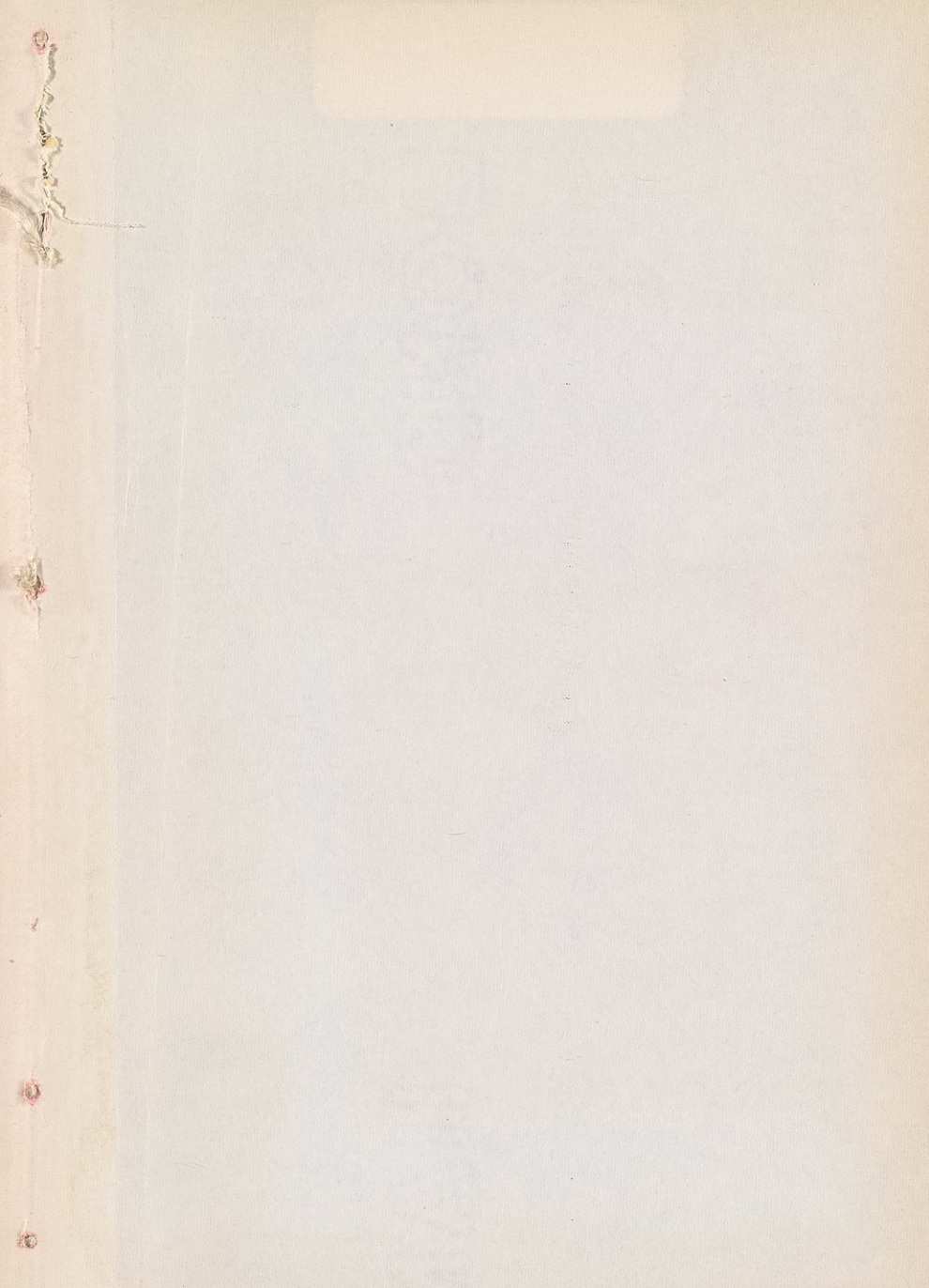


Princeton University Library



32101 072574872



فی رکاب الشیطان

محمد عصفی

جامع الجليل

صفحة ١٢

Shākir Mustafā

Fi kitāb al-Shayṭān

في كتاب الشيطان

تأليف

د. شاكير مصطفى

٥٥٦١ م - ١٤٠٦ هـ

دار الإمداد للنشر والتوزيع



الطبعة الاولى

دمشق - نيسان ١٩٥٥

ما يهمنى هو فقط ان تجد كلمتى
روحاً ، روحاً واحدة ، تتجاوب
معها ... لتبدأ المشكلة !
« وانما تبدأ المشكلة حين يمد
الصديق يده للصديق ويقول :
سر معى ! سر معى ! انما نحن
غريبان ! »

ش

(RECAP)

2272
69035
336

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
: اللهم صل على محمد وآل محمد
: اللهم صل على محمد وآل محمد
: اللهم صل على محمد وآل محمد
: اللهم صل على محمد وآل محمد
: اللهم صل على محمد وآل محمد

١٢

في الكتاب

أُمَامِيَّتْ

٩
١٥
١٩
٣٣
٥٧
٦٥
٧٣
٨٣
٩٣

شاكر
لمن تكتب ؟
نحو أدب جديد
الطين النبيل
في ركاب الشيطان
الفن والشيطان
بين العلم والفن
في الجمال
خبز آخر

ثُرَّة

١٠٥
١١١
١٥٩
١٧١
١٨١
١٨٧
١٩٥
٢٠١

بلد العميان
مع الاساطير
باريس
عام وعام
الوجوديون
حوار وجودي
ثائر على الماضي
حوار أمام لوحة

Handwritten title or header in Arabic script, possibly "مكتبة" (Library).

كتاب	١
كتاب	٢
كتاب	٣
كتاب	٤
كتاب	٥
كتاب	٦
كتاب	٧
كتاب	٨
كتاب	٩
كتاب	١٠
كتاب	١١
كتاب	١٢
كتاب	١٣
كتاب	١٤
كتاب	١٥
كتاب	١٦
كتاب	١٧
كتاب	١٨
كتاب	١٩
كتاب	٢٠

أخبار

14.10

ت

عرفته منذ زمن بعيد جداً . فربطني به ترقى إذا اسعفتني
الذاكرة إلى اليوم الذي عرف به الدنيا .
صحبته ثلاثاً وثلاثين سنة طويلة بملة . وكنت معه حيث كان
من باريس ودرعا ومصر وفيينا وروما وحي الصالحية العتيق . .
وما أذكر أنني أنكرته مرة أو خفي عني إلا منذ أمد قريب حين
طلعت (النقاد) على الناس بنتيجة استفتاء عن الكتاب السورين

فاذا اسمه بين الاسماء وإذا هو .. كاتب .. ! لأول مرة استطاعت أفنعة المسافر المضخمة أن تجبىء شاكرآ عني وراء الهلاهيل التنكرية فاذا به رأس ضخم وقلم أضخم على جسد صغير صغير يدرج درجاً على التراب !

وضحكت ضحكة رنت في آذان كل من يعرفني ويعرفه . أليس من حقي ان أضحك كما يضحك كل من يحضر حفلات الكرنفال من هذا الدعي الجديد في العالم الادبي ؟ . أذلك الفتى الذي كان يضربه أبوه إذا فاجأه يقرأ مجلة قد أضحى كاتباً ، وكاتباً معروفاً في المجلات ؟ وذلك الطفل الذي كان يحمل اللان للزبائن وينتظر وعاءه الفارغ قد أضحى يحمل الدفء لبعض القلوب ؟ أنا لا أعرفه سريع الغرور ولكني أعرفه سريع التصديق . وأحمد الله انه لم يتعبنى بحمل الرقي والتعاويد اليه بي أذفع عنه سحر الغرور وشيطان العجب ولأقنعه بانه ليس بكاتب ولا كويكب . ولا كويكب وأنه بعد في اول الشوط . والشوط مستعار ! وأصيل الجياد تشق اشواطها بجوافر كمسامير القدر وكم تسرع الاستاذ سعيد الجزائري - سماحه الله ما أطيب قلبه وأنغلاه - وكم تسرع وأخطأ في دفعه بين عجلات المطبعة ثم في اعتصار اوراقه الجافة مرة بعد مرة وفي إرغام القراء على معرفة اسمه ! .

ان لكل كاتب رسالة ولكن شاكرآ لا يستطيع أن يقول مارسالته ؟ ما اللهب الذي يشرب منه ويسقي الناس ؟ وإنه ، إلى

هذا لا يعرف لمن يكتب ؟ وربما فرح أحيانا بما يبرز على قلمه من
فكر ولكنه لا يستطيع أن يستبين في ضباب نفسه موطىء قدمه ..
أو عكازه !

لقد كتب عنه عدد من أصدقائه ويمدحون . وأعلم أنه يدين لهم
بالشكر . القلبي ولكني أتهمهم بأنهم كانوا يكتبون عن صديق
وكانوا . يصدرون فيما يكتبون عن روح الصداقة التي تربطهم به ولو
أنصفوا الحق لقصوا عدة أمتار من ذلك الثوب السابغ الذي
ألقوه عليه . ولو شأؤوا التخلي عن نظرة الرضى - وهي في
العادة كليله عن كل عيب - لوجدوا فيه العديد من العيوب
وهو نفسه لا ينجل من الاعتراف بعيوبه !

ولقد عرفه القراء من خلال أصدقائه بوجه مجمل بالأصباغ
والبريق الزائف ، كعروس « الجلوة » ولقد وددت أن أقدم
ذلك الوجه على نسخته الأصلية بكل ما فيه من تجاعيد وألوان
كامدة .. ولكني لا أستطيع أن اكتب عنه دون أن
يتحول ما اكتب إلى اعترافات .. اعترافات لا تنفع أحداً
ولكنها تجرح ضميري وضميره معاً !

أتراه يسأحني على ما اجترح في حق سمعته ؟ .
عرفته جم العمل وله في كل ميدان علاقة يقبل عليها بشغف
متجدد غريب ، كالملاح الذي يتخذ في كل ثغر زوجة .. ويزعم
لها أنها ثغره الوحيد ! إنه يسمى ذلك نشاطاً وأسميه أنا هرباً
واتلافاً . فهو أبداً كالمغفلت من دوامة لا تراه إلا مسرعاً كمن

تلاحقه الشياطين ولكن إلى أين؟. لقد باع نفسه لابیعة الدكتور
(فاوست) لمفيسفو وإنما للشيطان يريد آخر .. هبة مجانية !
فلا هو بمنصرف الأدب فيعمل له ولا بمنقطع للبحث العلمي فيغرق
فيه ولا بأهل للسياسة فيركض وراءها ولا هو بذی إمكانيات
فنية فيرتاح إلى نعمها أو جحيمها . أنا أعرف أن من خصاله
السيدة ، الاخلاص . أهو يجمل ما يريد فلا يستطيع أن يقول
هذه سبيلي ! أم تراه يعمل ليهرب .. وليهرب من مأساة يضم
عليها جلده ولا سبيل إلى قتلها إلا بخدر الهرب ؟ لعلي أسأله ذات
يوم أن يعترف وإن كنت أعلم أنه لن يجيب .. لا كبراً
ولكن ضناً .. بالتي في قلبه !

وعرفته محباً للاطلاع . كأن له ثأراً لدى المعرفة أو سرّاً
صميمياً في كل كتاب!.. ولكنه لا يؤمن بالمعرفة ولا بالكتاب
ولا يستطيع ان يدعى لرأي من آرائه أنه صحيح كما لا يستطيع
أن يدعى أنه فاسد. ويفسح لوجهات النظر الاخرى من المكان
في نفسه ما يجعله يؤمن دوماً أنه على مسافة واحدة من الخطأ
والصواب .. وترهقني « ريبتيه » أحياناً كثيرة ؛ وتغلؤني
حسرة ونقمة .. ولكنه يرتاح اليها فيسمح مثلاً لمهنته أن تطغي
على ما يكتب . ويسمح لقلمه أن يختبئ وراء ذلك الرعيل المرهق
من المفكرين والمهرجين . وهو من سخف الريب والجهود
بحيث يظن الناس جميعاً أنه في اعظم درجات الايمان ! ما هو
بالمتشائم أبداً ولكنه يتمتع بحرقلة او براحة إله نيتشه الذي

تستوي عنده جميع الحالات .

وعرفته أخيراً كلفاً بالحياة يدرك أنها الثروة الأولى والأخيرة
ويشتهيها - كما يقول - قصيرة غنية . ولكنه لا يعرف كيف
يسك العصا من طرفها الصحيح فتراه يعمى عن الحياة وهي
فؤارة كينابيع الفردوس في دمه ومن حوله وقد تتعري له
تتعري له تعري جنمات الغاب لبوذا فيشيخ عنها كأطفال
الرهبنات الاغرار في الثياب السود . كأننا هنالك شرطة
روحية أو لعنة تدفعه في الطريق الآخر ؛ طريق الحرمان .
وإياك تصدق زهده الثعلبي فما حفي في طريق الله إلا لأنه

لم يستطع أن يكون احد تلاميذ الشيطان !

لقد عرفته كثيراً ، هذا الصديق - العدو ، وعرفته للدرجة التي
أخشى معها أن اكون جهلته .. أليست شدة القرب بحجاب ؟
لكني واثق على الاقل من شيء واحد هو أنه يتمني على أصدقائه
أن يدعوه على الارض ، على هذا الجأ المسنون الذي يتغذى
منه .. مع بقية ديدان هذا الكوكب ؟ أم تراهم يضمنون عليه
هذه المنة ؟ .

ت. ص. ص.

- سألني :

لمه كتبت ؟

... ظل هذا السؤال . منذ وضعتني امامه ، ماثلاً في جيبني
لا يبرح ، كشبح الخطيئة ، أو نظرة عتب من حبيب ! ترى
حقاً ، لمن ولماذا اكتب ؟ ما سبق ان وقفت ، ولا سبق ان
ربطت جماحي ، إلى هذا السؤال . كنت اشعر به في غموض
دون ان احوله كلمات . وقد بقي ضباباً ابكم في خاطري حتى
زحف كلمه على الورق فاذا له من الرعب والقسوة ما لتكثيرة

الجماجم ! كنت اكره ان اقيم نفسي بدرب ؟ او اضرب من حولي إطاراً يحرمني متعة الانطلاق العفوي ومد اللسان وراء كل حد ؟ .. قد يكون ذلك فيني اعرف كرهى للدرب المرسوم وللمادة القانونية العبوس وللقانون الرياضي الذي لا يلهو بعض اللهو ، بل وللقدر نفسه لمجرد انه مسطور في اللوح المحفوظ ! ولعلي لهذا السبب شعرت للسؤال بهزة ؛ « كما انتفض العصفور بلله القطر » !

أما وقد شئت ان تكون - برغمي - كاهن اعترافي فساعترف ! إني اعتقد أولاً ان الكتابة حاجة إنسانية صميحة . وانا ككل ابناء القبيل المطرود من الجنة ، مولع بهذه اللعبة المزدوجة التي تسمح للذات بالانطلاق من سجنها . في الوقت الذي تحمل فيه الكون الاوسع ، بالمقابل إليها : لعبة التعبير فالانسان ثرثار منذ كان . ولعله لهذا افرغ ذاته من القديم القديم ، في الكلمة ، يلتقي فيها من حوله . وابتكر الحرف المكتوب يثرثر به مع الاجيال التي تأتي بعده ... وليمتحجر الزمن ! حتى الصمت الانساني هو نوع من الكلام ايضاً وله معناه « ولهذا لا تقول عن الاخرس انه سكت » !

وما من احدٍ إلا ولديه ما يقوله . على ان التعبير ، إذا كان امرأ عفويًا في الاصل . فإن الكتابة - ولا سيما الكتابة الفنية - عمل إرادي ما اضناه ! والفلافل الذين يملكون قدره التعبير الرفيع هم الذين يكتبون فقط . انت لا تكتب لانك

قررت ان تفعل ولكن لانك تتمكن من ذلك . فالشعور
بالحاجة - وهو امر مشاع - لا يكفي ولا بد من توفر القدرة
على الانتقال من هذه الحاجة الى الكلمة على الورق !
وإذا كان بناء جسرٍ يعني إعطاء الطبيعة معنىً إنسانياً وكان
شق درب إلى القمة وصوغ لحن من مديم الاصوات وابتكار
آلة من الصخر - ورواً من السمو الانساني ، فالكتابة ،
بتعبيرها عن الفكر ، في مفهومه للواسع ، هي التي تعطي
الانسان كل معناه ؟

وأنا من ناحية ثانية ، احيا ما اكتب ، سواءً كان لظي أم
هناة حالم ، أم ثمرة محرومة
أفي هذا طيفٌ من تبجح ؟ ارجو ان تنسى ذلك ! فالكتابة
عندي قضية ... قضيتي ! ما اكتب هو « أنا » بكل ما قد
يكون في من لونٍ ونشوةٍ وسقم ومرارة ... بل ومن
تناقض أيضاً ! وإذا كنت قلما ارضى عما اكتب ، فلأني احاول ما
استطعت ان ابقي مخلصاً للنفس ، الاخلاص العنيف المرعب !
وقد اشم الكلمة لانها اعجز من ان تغرف كل ما اريد من
اعماقي !

ولا فرق ، بعد ، في ميزاني بين من يحبس قلمه في البرج العاجي
ومن يلقيه مرارة الاكواخ وجوع الشارع ! بين من يجتو
اوهامه الفردية ومن يجرح لهاته بنداء الحبز والنضال ! إن
(الالتزام) الوحيد الذي افهمه هو الاخلاص للنفس ! وإذا

كنت اخترت ، لنفسي ، الحرف المناخل ، الحرف الذي
يشور ، ويكافح ، ويمنح ، فلأن هذا طريق اخلاصي . هذه
الايدي المعروفة والوجه الشاحبه ، في بلادي ، من ذا يستطيع
ان يفكر امامها بشي . آخر ؟!

وأنا ، من ناحية ثالثة ، وإن تمثلت الآخرين ، من خلال
التفكير والكلمات ، إنما أكتب لأنقل غير الواضح في نفسي
إلى الوضوح والنور . لأكتشف أرضي وحدودي ، لأزيل
الغموض والضباب في أعماقي إن الزهرة لاتحدد أوصافها إلا
بعد أن تتفتح ! وهكذا اكتب واعرف ان الكلمة التي تحررني
هي في الوقت نفسه قيدي . والحروف التي تجمع شتاتي هي ،
نفسها ، الصوى والحدود في سديمي فكل كلمة ايضاً تخم . ولكن
كل كلمة ايضاً نصرٌ على العدم !!

وقد تغربني هذه الوجوه الصامته من حولي ، كالأقفة ،
بالنفوذ إلى ما وراءها . وقد يشوقني ان اكتشف نقاط النقائ
بها ، لأشعر بالشمول الروحي الواسع ولكني أظلُّ مع ذلك
مقيداً في حدود ذاتي . ولهذا فليني لست اعلم « لمن » اكتب !
إني اتبين هذا الـ « من » بعد ان اكتب . العمل نفسه
يحدد لي الطريق والغاية وقد اكتب لكل الناس وليس لأحد .!
وما يحني هو فقط ان تجد كلمتي روحاً تتجاوب معها
لتبدأ .. المشكاة ! وإنما تبدأ المشكلة حين يد الصديق يده
لصديق ويقول له : سر معي سر معي . ! إنما نحن غريبان ..!

خوارب جهره

في هذا العنوان كثير من الدعوى والغرور . وأي غرور
أكبر من ان ازعم لنفسى قوة العالقة فارسم الطريق الوعر
الذي نريده إلى أدب جديد ؟ وانا اعرف ان آخر ما يخضع له
الأدب هو قيود الارادة ؟ وأي دعوى اعرض من اصطنع
عيون انبياء بني اسرائيل فاعين قبل الزمن ملامح أدب الغد ؟
هذا إلى انى لا احب لنفسى عمل بعض المهرجين الذين يشنون في

مقدمة الموكب يصفرون ويزعقون ليفسحوا الطريق للقادمين
الجدد .

على انهم ارادوني ان احمل شفتي (شق) أو (مطيح)
أو كاهنة معبد دلف لأقول لهم ما لست ادري شيئاً صريحاً
واضحاً عنه ، على انه آت لا محالة ! .. وواخبـلة الادب
والمنطق المزوق إن جاء مخالفاً لما قد ا قوله عنه ، ولما ا رسمه له
من مجار وملامح . وهل يستطيع الفارق في التيار ان يحكم أيا
المصير ؟ وهل في وسع الشاة المنعزلة ان تقضح نوايا راعي
القطيع ؟

وعلى هذا فلعلكم تساحونني إذا اسمعتكم الآن رأيا فطيراً
ما انضجه استقراء او تجربة ، او استنتاجا شخصياً لعب به
الهوى فاخرجه عن الجادة . او تمنيات لها تحدي النسر للاق
وايس لها جناحه القوي العنيد !

وقد يكون من المنطق ، لحسن عرض المشكلة ، ان
نتساءل اولاً :

هل هناك حاجة لأدب جديد ؟

إنكم تنتظرون بالطبع ان اجيب بالاجاب . لا اعرف
هذا على طريقة ذلك الذي تنبأ فلما سأله الخليفة ما معجزتك قال :
إني اعرف ما في نفسك فسأله : وماذا في نفسي اجاب : في
نفسك اني كذاب ! لا ! ولكن عنوان الحديث كاف ليوحي
إليكم بذلك . ولقد جئتم انتم وفي انفسكم صـورتي كمنجم !

ولكنني في الواقع لا أؤمن بهذا مطاقاً ولعلي أكثر من ذلك
أعتبر هذا السؤال غير ذي موضوع - على حد قول زملائنا
الحامين - ! فالأدب عندي ككل شيء حي في ازمة خلق مستمرة
أبداً مبدعة أبداً . وفيه ما في الحياة نفسها من توق كياني - لا
أدري بالطبع كنهه ولا مداه ولا عوامله - ولكنه توق إلى
التجدد المستمر المبدع . ففي كل لحظة خفقة جديدة ومعنى
مبتكر . وكم ابغض التشاؤم والعقم في مثل قول القائل : « ما ترك
الأول الآخر شيئاً » و« هل غادو الشعراء من متروهم ! » فالأدب الحقيقي
كالحياة في تجدد خلاق حتى حين يكرر نفسه ، كهذا الفجر الذي
هو دوماً قديم جديد !

وكما تضيف اللحظة الراكضة وشعاع الشمس وتربة الحقل
بعض الرواء أو بعض الذبول إلى الزنبقة وتمشي بها في عرس أو
جنازة إلى المصير كذلك تأتلف العوامل المختلفة على دفع الفن
والأدب في الطريق المبدعة المتجددة نحو .. نحو ماذا ياترى ؟
لا يهمننا كثيراً ان نحدد المصير ما دمنا نعرف اننا نسير
وانه لا مجال للرجعة . وإذا صور سارتر في (ويس - كلو) الجحيم
على انه المكان الذي تستحيل فيه الخطأ - وة إلى الوراء . فانا
اعتقد بالعكس ان هذا هو الجنة : جنة الحياة وبالتالي جنة الفن
والأدب التي تفعم كل لحظة بمجديد والتي هي ابدأ في تجدد
خلاق !

ولعلي اضيف هنا انه لا علاقة لهذا الايمان بالمسير وبالتطور ،

مع فكرة التقدم والطريق الصاعدة . فلست اجزم ان جديد
الادب والفن هو بالضرورة خير من قديمه او انه خطوة إلى
أمام أو إلى فوق .. إلى احسن أو إلى أسوأ .. إنها خطوة
جديدة وكفى وهي لهذا السبب جديدة بالحياة .

ثم ان القيم الأدبية ، ما كانت يوماً ما نهائية إلا في أعين
خالقيها انفسهم وفي أعين العبيد من خدم الموكب الذين لا
تستطيع انظارهم تحدى تلك القيم .

ليس هناك من مذهب في الفن شرب مع آلهة اليونان
« من كأس كان مزاجها كافوراً » فهو خالد الشباب يتحدى القدر
والهرم . وليس ثمة من طريقة في الادب يتوقف عندها الزمن
وقوف الشمس ليوشع او وقوف الهوى بأبى الشيص العاشق :
وقف الهوى بي حيث انت فيس لي

متأخر عنه ولا متقدم !!

ومن عادتي ان استريح الى هذا المفهوم الحي في الادب
لانه يضع لي الادب حيث يجب ان يوضع من تيار الحياة الدافق
ويربطه بالمصير الانساني ثم انه يفتح امامي مجال التفاضل والايان
بالخصب الدائم ، كما انه يفسر لي الصراع الدائم بين ما يدعونه
بالقديم والجديد والكلاسيكية والابداعية والتقليدية والتجدد
والرجعية والتقدمية .. يفسره على انه صراع إبداع حتمي ،
ولكنه يحيل جمرة ذلك الصراع الى نار ابراهيم ، لاني اعرف
ان الصراع بين ما كان وما سيكون ، دليل من ادلة الحياة

وشرط من شروط البقاء .. ولعلي لهذا اتقبل في نوع من الثقة
الهازئة محاولات القديم الذي يريد ان يفرض قوالبه الفارغة
وهو لا بد ميت والحديث الذي يدافع عن نفسه والنصر
بملك يمينه .

أتاني اوضحت لماذا لا ارى من مجال للبحث في الحاجة
او عدم الحاجة لادب جديد ؟

إن الناس يتحدثون اليوم في الشام وفي كل بلد عربي عما
يسمونه ازمة الادب ! يكتبون عندنا وفي لبنان ويسألون
كبار القوم في مصر . ولا مناص من الاعتراف بوجود ازمة
في الادب ! ولا اريد ان اذكر ان هذا الامر كان موضوع
بحث بين اقطاب الفكر العالمي في البندقية منذ امد قريب ،
فاني اعتقد ان لا علاقة ابدأ بين ازمة الادب العالمي اليوم وازمة
الادب في الشرق العربي ولكني اريد الا اخرج من حديثي
من هذه البلاد التي تتغذى وتلتج بالاحرف العربية .

واستطيع ان ابدأ من نقطة تنفق جميعاً فيها ، وهي ان
هناك في العالم العربي أدبا ، ولكننا نشعر جميعاً ايضاً انه ليس
بالادب الذي نريد وليس بالادب الذي نشتهي ان يكون . ثمة
شعور مبهم فينا كاطياف الغابة في الغسق ، يشيرون ثمة قهراً وراء
الافق ودروباً على النجوم تدعونا وتنتظرنا هناك . نحن على
موعد معها ولكن الطريق اليها ملففة بعمحة القبور !

إننا نشعر ان ثمة نقصاً او نواقص في تكوين ادبنا الحديث

وبان ثمة تطلعا عاما إلى ألوان أخرى فيه ، وإلى نماذج أكثر
قربا من قلوبنا وأعمق صلة بهذه الراحة الناعمة في نفوسنا والتي
يسموننا بالحس البديعي . اعترف بكل هذا ولكنني إذا حملته
وجدته يذبح لحد كبير مع واقع الحياة العربية وطبيعة الطور
التاريخي الذي يمر به الشرق العربي اليوم :

فلقد غزا أنا الفكر الغربي غزوا كان أسرع من قدرتنا على
الانسجام معه . وإذا كان المذباغ يصدق اليوم في صحرائنا دون
أن يفهم البدوي من تركيبه الدقيق سوى عرك أذنه فكذلك
الفكر العربي اليوم رغم نهجه وتطلعه ما يزال طفلا يدرج ويلتج
وكذلك الأدب العربي الحديث إنه :

١ - يتلمس طريقته تلمسا بين المذاهب الأدبية الغربية التي
تتقاذفه دون أن يكون لأي منها جذر في الأرض العربية .
إنه أشبه بقضاة الإنكليزي في الشعور المستعارة ! ذلك أن المجتمع
العربي لم يبع بعد كيانه ولم يكون بعد شخصيته التكوين
الكامل . أليس هذا أمر ما لدينا من مذاهب سرالية ورمزية
وغيرها ؟ هذا إذا نسبنا أن الفكر الغربي قد قذف إلينا بأنواع
أدبية جديدة ما يزال أمامها في دهشة الجديد وحذر المحاولة
الأولى (كالمقصة والمسرحية) .

٢ - أدبنا الحديث لم ينفصل بعد عن الماضي في التعبير
وإن انفصل عنه في الزمان والفكر . وهكذا عاشت القوالب
اللفظية فيه أكثر مما يجب أن تعيش ، ظهر كتاب الأسلوب

(كالمفلوطي والزيات واحمد امين) بينما لم تنضج الفكرة بعد
لتمخلق القالب الفني الملائم لها .

٣ - لا يستند أدبنا الحديث الى مجتمع غني خصب الحياة .
انه مجتمع قلق مريض هذا الذي يغذي الأدب الحديث . وما
تزال اطراف السبات ترتق على عينيهِ : فلا بطولة في الحكم ولا
علم رائع ولا اقتصاد يميز الدنيا ولا فنون آلهية او نصف آلهية
ولا .. أدب أيضاً .

٤ - أدباؤنا لا يصدرون في الذي يكتبون عن نزعة صميمية
في الابداع وعن نداء الحياة الملح . لست اقصد من هذا
خرافة الانعزالية والبرج العاجي . فالمجتمع يلاحق المبدع حتى
زاوية الصومعة ، ولكنني اقصد انهم بعيدون عن التجربة الحية
وعن المعاناة والحُصْب الذاتي ، بعيدون عن الثقافة الواسعة التي
لا تتغذى بالكتاب فحسب ، ولكن بالظلال والاريج الحي
واللون الراش وبالحسن كخيطة من الذشوة يقيد الحافق بين
الضلوع .

أحسبني في هذا التحليل ألقى بالماء البارد على حماس الناقمين ،
وَأمد بلساني للمتشائمين من العقم ، واقف في صف الجبورية
الادبية ضد النضال وضد دياكتيك الحياة !

لست الى شيء من ذلك قصدت ، ولا اعتقد ان تحليل
الاسباب قد يشكل عذراً أو مبرراً للفقر او ان القدر ، أيا كان
ذلك القدر ، يمنع من اعنف النضال !

على أني أردت فقط ان اربط ما بين الحياة العربية الحديثة والادب ، و اردت ان اقول انه منها وانها منه . وإذا كانت في تطور فهو مثلها في تطور ايضاً وإذا كان الادب في ازمة فازمته وجه من وجوه ازمة التكون الحديث في المجتمع العربي وإذا ازدادت الصيحة وكثر الحديث عن ازمة الادب اليوم فان ذلك لم يكن واضحاً منذ سنين معدودة ، لان الانقلاب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والفكري الذي يهز الشرق العربي لم يكن واضح القوة قبل سنين .

أستطيع بعد ان اقول : ان الادب العربي الحديث سائر من نفسه وب نفسه الى عالم جديد ؟ وان الازمة القائمة ما هي إلا ازمة شعور كآلام المبدع حين يبدأ القلم بالسير على ورقته ؟ أعيد نفسي من ان اتفائل هذا التفاؤل العريض وارى - على طريقة دون كيشوت - اشباح المحاربين العماقة حيث لا يوجد سوى اجنحة الطواحين ! واكني لا أستطيع ان ادير وجهي الى الوراء والى الظلمة وامنع نفسي من التطلع والامل . من عادتي ان لا اقول ما تعود ذلك العبدان يقول اولاده من ملوك الشرق الاقدمين كلما مدت المائدة :

— تذكري يا مولاي انك لا بد ان تموت . بل اقول تذكري

يا مولاي انه لا بد ان يوجد غيرك . والشيطان واحد ولكن الفرق بينهما هو ، قدر الفرق بين من يقول عن نصف كأس الماء إنها مملوءة الى نصفها او فارغة الى نصفها .

على هذا النحو أو من بان الادب العربي الحديث لا بد
متطور مع تطور الحياة العربية . ولكني أو من في الوقت
نفسه ان هذا التطور لا يأتي دون عمل . ودون اعصاب تهترى ،
ودون دموع ودم ، ودون رقصة وضحكة ملء الصدر ايضاً !
ويرن في أذني هذا عنوان حديثي : « نحو ادب جديد » ،
فاجدني ما زلت اهرب منه او اليه ، اجدني أحوم ثم أحوم
دون ان تسعفني الجرأة باقتحام الغد او التغفل منه في صدر
عراقة كاهنة !

ولكني على كل حال لا اعدم الاملية . لا اعدم ان
اسجل ما اريد للادب الجديد المقبل من مصير وليس من ضير
على ما اعتقد ان نحن داعبنا ادب الغد بالاماني كما تداعب الأم
وليدها باحلام المستقبل . أود لذلك الادب :

١ - ان يكون ابن العصر المقبل فنا اعلم نفسي بغض القوالب
المتحجرة من الماضي وبغض اساليبه وطرقه واصم اذني عن
ندائه « انه اشد اغراء من السيرونيات التي جعلت تدعو
اوديسيوس وهو عائداً في البحر إلى وطنه وإلى حبيبته ، تدعو
بغنائها العذب الحنون ان يقف عند جزرها ويتجمد على رمل
الشاطئ كالآلاف ممن سبقوه . اعلم نفسي كره المتاحف
والمسكنات واخشى دوماً من دبيب القبور الى الاحياء ، ومن
ايدي الموميات الجافة ان تمسك بحناق الزهرات الجديدة الحية . .
لنجرأ كما قال مرة اندره بريتون « على خلق المجهول الذي

ليس إلى تسميته سبيل » يجب ان نستند إلى الماضي ، يجب ان نقرأه وما من حركة صحيحة تقوم دون جذور ونسغ . ولكن من السخف ان نقرأ الكتاب الكبار كي نخذو حذوهم وانما يجب ان نكملهم . لانريد من الاديب المقبل ان يكتب كتاب « البيان والتبيين » أو قصيدة أخرى لأبي تمام ولا أن يبدع « فاوست » أو قطعة اشكسبير لسنا بحاجة الى جرير وجاحظ ومتنبى ومعري ولا الى شيلروابسن وتولستوي انهم موجودون على رفوف مكاتبنا بل نريد الادب المتكون من هذه القمم ومن العصر الذي نحيا فيه معا ! « كن من عصرك لا من عصري » هذه هي الوصية الذهبية التي يجب أن نكتبها على كل كتاب من التراث الادبي ! .

ولقد يضطر الادب العربي الجديد إلى الدخول في الصراع العالمي للمذاهب الادبية ، لقد يضطر ان يقول كلمته في السريالية والوجودية والشيوعية . لقد يضطر .. فذلك لامناص منه . ولكني لا أعرف ماذا ستكون تلك الكلمة ! وليس في وسعي تحديد ها لأن أديب الغد العربي هو الذي سيقولها !

(٢) أتمنى للأدب الجديد ان يكون حراً فاننا اكره للادب ان يقيد بمذهب أو رسالة محدودة ، ان رسالة الأدب أن يوجد فحسب ، ومهمة الاديب ان يخلق أيا كان ذلك الخلق . اما تلك الخصومة بين نفعية الفن ولا نفعيةه وبين تقييد الاديب وحريةه فخصومة تخبط في الهواء .. إن للأديب ان يضعف

الحياة بخلق عالم آخر كما فعل ستانداي وبودليير أو أن يكملها على طريقة روسو وغوري ، له ان يقدم للناس الراحة واللذة وسط تيار الحياة الجافة مثل فلوبيير وأوسكار وايلد .. وله ان يستعبده التطهير والتوجيه الخلقى على منوال غوته وجيد وبرناردشو ، كل ذلك واقع ويقع كل يوم والعالم يهدى ابدآ ضجيج رأسه في الادب كما يهدى الملك لير جنونه في العاصفة . ولكن مامن مرة اشترط سلفاً على الاديب ان يكون آلة ووسيلة ؛ وعلى هذا فلا أدب أسود ولا احمر وليس ثمة ادب واقعي او خيالي ولكن هنالك أدب فقط . والكتابة كما قال سارتر هي في وقت واحد كشف العالم وطرحه لسخاء القارىء ولحرية في التلقي والابداع الجديد . وكل اثر أدبي نداء حر ، يتوجه إلى حرية الآخرين ، وإبداع حر لا يتم إلا بإبداع يقابله من القارىء .. وإذ ذاك تنتهي مهمته !

يجب ألا تهمنى اخلاقية الادب ولا واقعيته ولكن بديعية الأدب ، ومقدار حق التجربة الحية فيه « وليست الشخصيات المرسومة الحسنة القصد - كما قال زيمياتين - هي التي تنتج الادب بل المجانين والفساك والمارقون والحالمون والناثرون والمتشككون هؤلاء هم الذين ينتجون . وعلى عتبة هؤلاء تقف النفعية ويقف المنطق وتنتصر الاخلاق !

وأخيراً أرجو لأدبنا في الغد، ان يؤمن بالحياة الانسانية لا تلك الانسانية المريضة الخائفة العاطفية ، لا ولكن ان

يؤمن بالانسان ، وبالعامل الانساني ، قبل الايمان بالقدر ،
(على طريقة الحضارات القديمة) ، او بالآله (على طريقة الحضارة
الحديثة) او فرق الايمان بها .

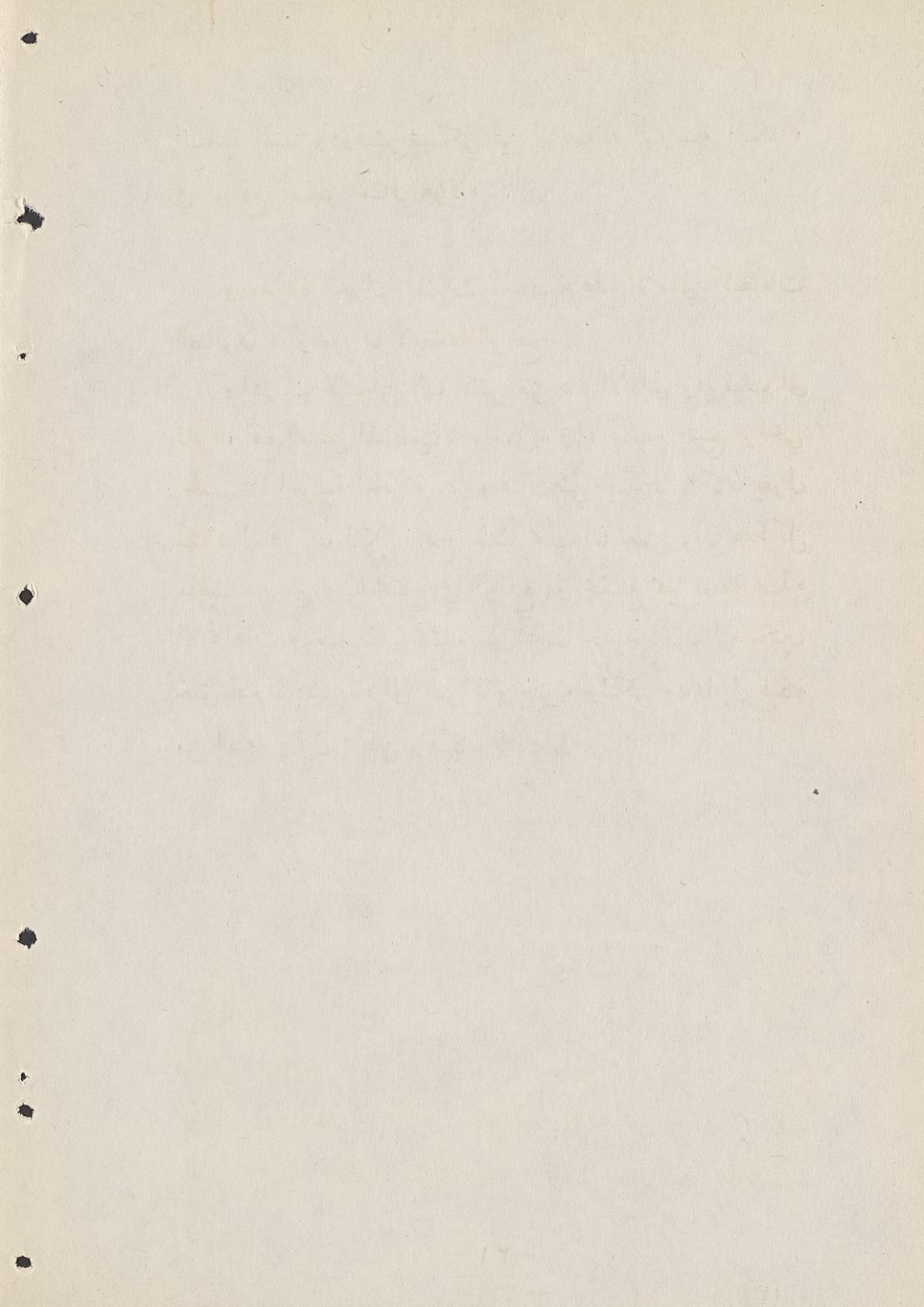
إن الفرد الانساني هو أثمن ما في الحياة ، لانه كنز غني حافل
بالتجديد . والتعبير عن هذا الكنز وفتح الكوى لاتصاله بغيره
واعطاء اللحظة العابرة سرمدية الوجود الانساني هي هدف
الادب الحي .. وهنا تبرز قيمة التجربة وقيمة الفردية في
الادب .. فسواء كانت التجربة خطيئة أو لعنة مخضلة بالدموع
كتجربة اوسكار وايلد او فرلين او مجنأ عن المثل الأعلى او
وسيلة للمعرفة وللحقيقة كما عند غوته .. فانها على كل حال تعبير
عن وجودنا الانساني الحي ، إنها هي الدماء الحارة والاعصاب
والمعاناة النفسية الراعشة . ثم سواء كانت الفردية نسجاً لعوالم
الوهم او تنزيهاً للياقوت الأزرق « كما يقول كيتس » او
كانت نضالاً لمثل أعلى أو نفحة كآبة ، فإن الانسان فيها هو
البداية .. إنه يعطي حياته بها معنى ، ويمنحها أوج قيمتها ! أما
التجانس فمقبرة تسلب الفرد كل ما فيه من عفوان .

انا لم انسف بهذا كل الجسور التي تربط ما بين الانتاج
الادبي والواقع القومي .. لا فاني موقن ان اتصال الاديب
العربي اتصالاً عميقاً بالحياة سيجعل إنتاجه معبراً عن الانسانية
العربية دون ان يفقد قيمته العالمية تماماً كما عبر طاغور عن

انسانية الهند ودوستويفسكي عن الانسانية الروسية. ألسنا ،
في الواقع ننتظر أمثال هؤلاء ؟

* * *

وبعد فأننا أعلم أنها أمنيات شخصية هذه الأمانى كفقاعات
الصابون ، أرجو ان لا يبقأها الواقع .
واعلم انها لا يمكن ان تنتقل من عالم الاماني والرفيف الى
عالم الواقع القاسي المناضل إلا بالعمل ، وإلا بتقدم جميع نواحي
الحياة العربية الحديثة . . « هناك شيء بسيط كما كان يقول
ستاندال هو انه لكي نبدع شيئاً يجب ان نعمل . ان هذا كل
ما فينا من سر » إنا نحتاج في الواقع إلى مجتمع يحيا بدمه هذه
الاتجاهات ويعمل لها . نحتاج الى اديب جديد ! إن الله حين
خلق آدم لم يمد يده الى الفراغ ويخلق ، ولكن مدها إلى قبضة
من الطين وقال : كن . فكان !



الطير النبل

هذا العنوان ، (الطين النبل) ، شكوا في سمعهم حين ذكرته وتأكدوا منه مرتين . تهجوه حرفاً حرفاً قبل ان يثبتوه البطاقات . بلى ! اقول : الطين ، الوحل ، الجأ المسنون ! قد تكون المفارقة الفنية هي التي دفعت الفكرة الى شفتي . ولكن لا تشفقوا على النبل ان يزحف الى الطين او ان يزحف الطين اليه . لا تخافوا جراحه ، فبعض من بعض قريب ، قريب .

واعترف اني اخذت بما القته الفكرة في خاطري من الحُصْب
الملون ، حين تراءت وراء الطين يد الله تعجبنا الصلصال الاول
ثم تنبسط ، كاليد التي صاغها (رودان) ، وبين راحتها والاصابع
رعف من مخلوقات كاملة ونصف مكتملة وفي طريق التكوين
والبصيص . وحين تراءت وراء النبل كل القيم ، قيم الاخلاق
واقاداس الدين ومثل الفكر ، تراءت كلها تحتضن ذلك الحما
الآسن وترتديه .

اخذت بهذا كله وبما فيه من جذور عصية او خاشعة في
ضلوعي فما استطعت فكما كما منه ولذلك اجدني مقوداً برغمي الى
ان احو (او ادفع على الاقل إلى العتمة) ما قد يكون عنوان
« الطين النبيل » قد اوحى به اليكم من المعاني . لن اتحدث عن
تراب الوطن مثلاً ، هذا الطين الذي شرب حتى ثمل من دمي
ودم قومي . ولن اندفع في دروب الاخلاق فأقلص ، بالوعظ
السخيف ، ما بين جباهكم والذقون ، ولن اروي لكم اخبار
بعض بني الطين من المبدعين . ولن ابعث خيالي في افق قصصي
اخلق انا اكرانه ونجومه ودوده قصة من القصص . بلي !
سأروي لكم قصة ولكنها منكم انتم ! وهي الملحمة الكبرى
التي نسجت طائعين او كارهين ، كل خيوطها . قصة الانسان ،
وسأرويها كما افهمها ..

بدأت هذه القصة - كما لعلكم تذكرون - في الطين ..
وسواء آمنا بايام التكوين الستة ام صدقنا فاجعة داروين ، فان

آدم والحلية الحية الاولى سواء في بدنها قصة الانسان من المأ .
ويخيل إلي أحياناً ان اللعنة التي تلاحق البشر منذ عهد الخطيئة
الاولى والفردوس المفقود ، ما هي في واقعها إلا ذلك الاطار
من الطين ، طين الارض الذي ضرب حول الانسان وحدد
مدى يده وبصره . فهو لا يرى ما في السماء إلا من خلال الطين
ولا يبني حضاراته إلا على الرمال ، ولا يقيم مفاهيمه الكبرى
إلا في الوحل والتراب .

وقر امامي هنا في عرض كعرض اعياد المساخر ، ملايين
المجلدات التي تروي لي وتغيري تاريخ الناس واخبار الذايين
الاولين ، وقصص الحضارات العلى واحوال الابطال الذين
تركوا

... في الدنيا دوايا كأنما تداول سمع المرء انملة العشر
فلا ارى في ذلك جميعه سوى صورة واحدة مكرورة :
صورة هذا الحيوان الذي وقف على ساقيه ، ولكن . . . ما
انفكت عيناها تبحثان عن الطعام في الارض ويداه تعملان على
تكويم التراب اكوا ما يدعونها مدنا . . وليس بعد ذلك شيء
سوى بعض اللغو الذي يدعونه فكراً و اخلاقاً وفلسفة
وعقائد وعلماء .

قد تروع هـذه الصورة الجهمية بعض المؤمنين بالتقدم
الانساني ، الذين يتصورون الانسانية صاعدة على سلم ، اقدامه
في الارض وفروعه بصدر النجم مع المأ الأعلى .

والبشر منذ كان البشر ، يحاولون الخلاص من الطين ،
يرجون السمو عنه ، وخنق ذكراه في النفوس ، لهذا انحدروا
باصل الانسان عن الجنة نفسها ، ولهذا ايضا كرهوا ذكر
الحيوان فيه ؟! ولهذا ايضا وايضا آمنوا بالتقدم المستمر ؟ .
آمنوا بالعقل ونغاره وبمجموعات الفضائل يشقون بها الدرب .
إلى ما فوق الانسان ، الى الله !

ولست أسك بدوري أن هذا الطين الذي رقصت فيه
فيه الحياة ، ذات يوم ، وصقلت ، كاليد الفنافة الصانع خده
وزوقت يوماً بعد يوم شفتيه وهذه الخطوط الحلوة من قامته ،
وتلك التلايف المعجزة في قلب دماغه .. هذا الطين مشروع
ناجح للتسامي .. ألم يزد الكبر بالله حين نفخ يديه منه فاذا
به يصبح الصيحة التوراتية : هذا حسن !! ويكرر في القرآن :
إنا خلقنا الانسان في أحسن تقويم !

علم ، أي لا أدري أي رغبة مرة ، لها عين مغولي ، وقهقهة
نيرون يوم الحريق تلح في قلب القيم عندي وتداب على نحرها
في الصميم . تنسني الحياة ساعة اني طين حقير ثم ما ألبث ان
أجدني كما النافورة يرتفع ويرتفع ثم ينكفيء على نفسه فاذا هو
على وجه الموجة فقاعات وشيء من زبد قليل .. واتعلق
بافكر واتأرجح معه ، أني تأرجح ، ثم أقفز إذا قفزت فاذا بي
مازلت على الأرض . واصطنع كل الفضائل الاجتماعية وآلم لقوالها
التي تشوهني كما تشوه الاحذية الحديدية اقدام الصينيات ولكني

لا ألبث ان ارى وراءها الفراغ العتم ..

وتقف الى خاطري هنا كل ضروب النبل التي يرتديها الانسان،
سواء في هربه من الطين او في تعلقه بأذيل العقل والخير والسماء،
فاذا شيء واحد يبقى منها في يدي ..

ما هو ياترى ؟ دعوني ابدأ الطريق من أولها وافحص
ضروب النبل الانساني دعوني ابدأ بالرجوع إلى الطين بذكر
ملاحظتنا (*) الطينية :

فنحن شئنا أم أبينا أولاً نعيش على الارض وتتغذى
بالتراب . وهذا المسرح الذي يشاركنا فيه الدود الاعمى
وشعاع الشمس المرتمي في الوادي ، والشوكة التافهة حقيقة قائمة .
وليس بإمكاننا ، كما انه ليس من مبرور ، لان هرب من هذه الحقيقة
الى السماوات العلى ، بل لعله من اسباب الغبطة الكبرى ان يجد
المرء قبائل الزهر من حوله ، واسراب القمارى ، وان يذوب في
سمفونية ألوان الشفق ويتذوق طعم الاغذية الارضية
وسكرة العطر !

ونحن شئنا ام ابينا ، ثانياً ، نملك جسداً ، مادة قائمة على شكل
ونسق وتوازن دقيق . وهي حقيقة نحاول دوماً ان نتناساها
فنطلع دوماً الى عالم الروح والملائكة ، ونرمي الجسد بكل
معاني الانحطاط والبهيمية . واعترف اني في قرارة نفسي اغبط
حظي في انني ذو جسد ولست روحاً فحسب « وانا أتساءل في

(*) بعض ما جاء في هذه الملامح مقتبس من اقوال الفيلسوف الصيني
لين بو تانغ .

بعض الاحيان اي قصاص رهيب ذلك الذي يمكن ان ينزل
 بطيف او ملاك ، اذا ما حرم الجسد ! فهو يتطلع إلى جدول
 الماء الريان وليس له رجلا ن تسمجان له بالحوض فيه ، وهو يرى
 إلى صحن من اللحم الشهى وليس له لسان يتذوق طعمه وهو
 يلمح الحلية وليس له صدر يزينه بها . وما اتهمس حالنا لورجعنا
 يوما إلى هذه الارض اطمأننا لطيفة وتقدمنا في صمت الى مهج
 احقادنا فرأينا احدهم مستلقيا في فراشه وليس لنا أيد تلاطئه
 او أذرع تعانقه او صدور ينفذ اليها دفؤه . ولا تتجاويف
 مستديرة بين الحدود والمناكب يستطيع هو ان يسكن اليها
 ولا أذن نسمع بها صوته !! »

إنه خلّيق بالروح ان تأسن ، ان تلتجر لو اصابها الركوند
 التام ، الهدوء المطلق .. الفراغ الاعمى . ان الحياة تكون حتما
 قد زابتها !

ونحن سنأنا ام ابينا ثالثا نقوم على قوام حيواني . وهي
 حقيقة نستطيع (او لنقل يجب) ان نعترف بها برضى اذا نحن
 لم نشأ ان ننكر ، في عناد مضحك عقيم ، صحة النظرية الدارونية
 وحقائق البيولوجيا والكيمياء الحيوية . واي حس بالدعابة
 والسخر الرفيع يمكن ان يغمرنا حين نذكر انفسنا باننا من
 نسل الانسان النياندرثالي او الهايدلبرغي او انسان جاوة ..
 بل ابناء القروء ... الانسانية ! إنا اذ ذاك خليقون بان نضحك
 بعمق من اكبر مأسينا (فالكوميديا البشرية) لا تبلغ اوجها

في انفسنا الاحيين نقرر قرديتنا النبيلة !! وأنا خلقنا على شكل القرد لا على صورة الاله ! ومن العبث الذي لا طائل ورائه ان نتجمل بالاصبغة ونلتف بالاقمشة ونتضع السمو الفكري لنثبت ان بيننا وبين الحيوان هوة لا سبيل إلى اجتيازها .

ونحن شئنا ام ابينا وابعاذو ومعد . لا تملىء ، كالبرميل الذي عاقبت الآلهة (بنات دانائيد) بملئه بالماء وهو لا قعر له . . وهذا الجوف الذي منحناه صدفه او حسب خطة مرسومة ، « ترك طابعه العميق في التاريخ البشري واذا كان الكثيرون قد مكروا بالغريزة الجنسية ، فانا لانعرف قديسا او بطلا استطاع ان يكرر بمعذته . فلازمتنا اليومية التي نكررها كل عدة ساعات : ماذا نأكل ؟ والمؤتمرات الكبرى تعطل مناقشة أخطر المشاكل السياسية للأكل ! ولا شيء انجبع في كسب الناس من دعوتهم إلى مأدبة حافلة ! واقصر الطرق دون شك الى السلام هي تلك التي تمر بالمعدة ! ولعله من حسن الطالع ان غريزة الجوع لم تحط بمثل ما أحيطت به الغريزة الجنسية من ضروب التحريم الديني والاجتماعي ولم تنشق عنها بالتالي اي مشكلة اخلاقية او منقبية ! على ان الحياة قد جربت تضخيم (الكروش) فوجدت ، ذات يوم ، حيوانات الكروش الضخمة ولكن هذه التجربة فشلت !! وانقرض ذلك النسل .

ونحن شئنا ام ابينا خامساً نختار اياها مع ملايين عدة من

أشباها (ثنائيل الطين) ، نأخذ ونعطي ونتجاوب ونصطدم ،
ونقتل ونقهقه كقطعان المها وعصائب الكراكي . وليس من
هذا الواقع ايضاً . فمن سعادات الانسان العميقة أن يجد صديقاً
يشاركه الفكاهه وفقيراً يمنحه الاحسان وعاملاً يهد له دون ان
يعرفه الطريق ، وثغراً يقول له : احبك ! على أن هذه
الاجتماعية تكلفنا غالباً فالنتيجة الطبيعية لاننا حيوانات وذوو
اجساد أن يشجر الخلاف بيننا فنسويه على طريقة البهائم . والاسد
في مملكة الحيوان هو دوماً على جادة الصواب .. ولقد كفت
غرفة من غرف التعذيب لأن تفنع غاليه بمدى خطئه في القول
بكرؤية الأرض ودورانها . ولولم يكن ذا جسد فان بين هذه الملايين
من البشر حوله لما كانت هناك قوة تستطيع تحويله عن رأيه ..
ومن حسن الحظ انا خلقنا ذوي السنة . وان اثره تستعمل
لدينا عادة مع قبضة اليد في الاقناع ولعل اللسان كسلاح من
ابرع مبتكرات الانسان .

ونحن شئنا أم أبينا سادساً ميتون ، « واحسب ان
الديمقراطية كلها والشعر أجمعه والفلسفة بأسرها إنما تنطلق من
تلك الحقيقة » وديمقراطية الموت نادراً ما تكون محل نظر لدينا
فلا بد يوماً من أن تزايل نبضة (الحياة) هذا الطين فاذا هو
هامد لاحس فيه ولا شعر ولا همسة حب أو عاصف غضب !
لا بد أن تهجر الحياة هذا الرداء المادي . والارض بهذا المعنى
تبدو وكأنها مقبرة كبيرة ، كما يبدو الانسان بدوره ، وبما

يتغذى به من كائنات الارض ، قـبراً سياراً !. والتفكير
بالموت سبيل الشعر العميق .

وشكسبير (كالمعري والحيام) إنما برهن على شاعريته
العميقة حين جعل همت يتتبع رماد الاسكندر النبيل إلى أن
يجده .. سداداً لبرميل من الجعة !! ومن البديهيـات التي نعلمها
أن مراوغة الموت عبث ومن هنا كانت فكرة (الخلود)
الفكرة التي تستحق وجودنا الانساني سحراً والتي تستأثر وحدها
بمعظم القيم والجهود الانسانية !.

واترك هذه الصفات الطينية التي تعلق بنا رغم هربنا منها
لأنظر في الميزة القابلة التي نحاول اللحاق بها ، فنفسل أو نكاد:
العقل .

ولعل ابرز ما نفخر به ، نحن تماثيل الطين ، أننا ذوو ادمغة !
والعقل - الذي نزعـم انها تحويه - انبل نتاج تمخضت عنه الخليفة .
وهو قول جدير ان يسلم به سواد الناس لاسيما حين ينظرون الى عقل
كهقل اينشتاين او اديسون او عقول اولئك العلماء الذين اخضعوا
ما لا يرى من الذرو وما لا يطاق من اشعة النجم . ولكني لا
احسد نفسي ولا غيري على هذا العقل .. لا على طريقة المثني
الذي رأي ان :

ذا العقل يشقى في النعيم بعقله

واخا الجهالة في الشقاوة ينعم

لا ! ولكن على نحو آخر فلو قد خلقنا كائنات عاقلة كل

العقل ، مخلوقات لا تعرف الاثم ولا الشذوذ ولا الضعف فما كان اتفه العالم إذن ... انا بذلك نفقد الكثير من فئتنا كبشر . وانا بجانب الاثم الانساني لدرجة تجعل القديسين الذين لم يتردوا في الاثم أبداً غير محبين الى قلبي . نحن فانتون بنوعاتنا وتقلبنا وحماقاتنا والوان عبثنا ومجوننا وتعرضاتنا وتعصبنا الديني وسهونا . ولو كانت حياتنا مقيسة بالدقة بمقاييس العقل ، معروفة المبدأ والنهاية ، فاي متعة يمكن ان تجد فيها ؟ وهل يتابع احدنا قراءة رواية خذلت شوق القارىء منذ صفحاتها الاولى فاعطته الحاتمة ؟ وهل يلذ له الرهان والسياق وهو يعرف الجواد الرابع ؟ إن عالماً لا تسمع فيه كل لحظة بملك تخلى عن عرشه في سبيل الحب ، وبهزيمة مكروب اعياء العيون ، واشتعال نار في بيدر ، وفضيحة في قلب ، وقسيس يفر مع احدى الغانيات جدير به ان يكون ساحة احدى المقابر ! او مجتمعاً من مجتمعات النمل او النحل يدور في دائرة الغريزة السرمدية !! اني اكد اعتقد ان اشهر الرجال في التاريخ البشري هم اكثرهم ضحكا على العقل . هذا يوليوس قيصر ينسى امبراطورية كاملة امام عيني كليوباترا ! وهذا داود الملك وحش تارة وكريم اخرى ، آثم يوماً وكاتب لزامير التوبة يوماً آخر ! وهذا يسوع الناصري يعلن شكوكه وهو على الصليب ! وهذا غوته يحتفل في الكنيسة بزواجه وابنه من زوجته البالغ تسعة عشر عاماً ، قائم الى جانبيها ! . ونحن ، هل نستطيع ان ننكر ، بيننا وبين

انفسنا على الاقل ، ان ٩٩ بالمئة من اعمالنا لا تمر بطريق العقل
واننا نخجل كل الحجل لو واجهنا احداً بالاعمال التي نقوم بها ونحن
دون رقيب ؟! هذا الى ان العقل نفسه ، لو رددناه الى وظيفته
الاولى لما كان اكثر من آلة لابتكار الآلات - كما قال برغسون -
و ما كان اكبر وظيفة من خطم الخنزير .. كل عمله تلمس الطعام !!
واست هنا في مجال الدفاع اليأس عن النقائص الانسانية
ولكن هذه الحواطر تقودني الى الناحية الثانية بما ندعوه بالنبل
الانساني : ناحية القيم الخلقية ، ولن احطمها بدورها فاطمئنوا
ولكني ، لا اثق بها ! وتمر في خاطري قصة طويلة تلخص كل
ما اريد قوله .. فماذا لو وقفنا عندها ؟ القصة هي « فيراتا »
للكاتب النمساوي (ترفايغ) :

وفيراتا محارب رائع السهم في خدمة الملك راجبوتانا ،
وقد ثار احد الولاة على الملك ، واستمال الناس بالمال ، واغوى
الكهنة فحملوا اليه طائر البليشون المقدس ، شعار الملكية منذ
الوف السنين ، وزحف على العاصمة ، ولم يجد الملك المرزأحوه
سوى : فيراتا .

وشق البطل المحارب طريقه في الغابة الملبدة ، واستطاع
بجراته ومعرفته بالارض ان يأخذ الثائرين على غرة في غلس
الليل ، فلم تلمع في الدجى غير السيوف ، واما الاعشاب
والشجر ، فقد رويت بالدم . وقتل فيراتا بيده الوالي الثائر
وانصاره في خيمته الكبرى !

وحين تبدت الشمس في الصباح كالجرح المشتعل . كانت
الارض في غير حاجة الى حمرة الشفق ، إلا ان الاشعة وقعت
منها على وجوه مسخها الألم ، وعيون شاخصة من الذعر وطاف
في اراتا بين الجثث ، فاذا به ، ويا للهول ! يصطدم بعينين ثابتتين
تخرقان قلبه بنظرة جامدة كالرصاص ، انها جثة اخيه بين قتلى
الناثرين !

وبينما كان جنون الرقص يستبد بالجنود في كل مكان حول
طائر البلسون المقدس ، وهم يهتفون في اراتا بقلب (لمعة السيف) كان
القائد المنتصر يلقي بينه وبين الوجود بحجاب من الدمع الحار
ثم يقوم فيأمر بايقاد النار ويبني المحرقة التي تلقى بها الجثث
بين الطيوب !

وعاد الجيش المنتصر ، وفيما كانوا الجنود يجتازون الجسر
الاعظم احتواهم العجب وهم يرون الى قائدهم يرفع سيفه كأنه
يهدد السماء ثم يرخي ذراعه به ، فاذا به يلتمع كالشهاب ، قبل
ان يبتلعه التيار الآتي .

وخرج الملك للقائه يحمل له سيف القيادة العامة ، سيف
أول ابطال راجبوتانا المحفوظ في خزائن المملكة منذ خمسة
آلاف سنة وقدامتاً قائمه بالجوهر مع التعاويذ ، ولكن في اراتا
انحنى يلثم الرداء الملكي :

- هل لي ان استوهبك عارفة ؟

- طلبك مجاب قبل ان ترفع عينيك !

— اعد هذا السيف إلى مكاز، فلن احمل سيفاً بعد. لقد قتلت أخي!
وتلبدت عين الملك بالغضب وقال :
— لا استطيع ان استغني عن خدماتك ، وستكون إذن
قاضي القضاة في مدخل قصري !

ومنذ ذلك الحين ، صار فيراتا يوزع العدالة في الناس ، وكم
شاهده الناس يسهر الليالي حتى الصباح مفكراً في وجه الحق
وزنة الحكم ! إلا ان حكم الاعداء ما قفز إلى شفتيه قط حتى
نسي الناس لقب لمعة السيف له ولقبوه : (منبوع العدل) .
واتفق ذات يوم ان أتى إليه بشاب من سكان التلال
السخريّة قتل احد عشر رجلاً من اهل الفتاة التي احبها ومنعت
عنه . وقد تكلم الشاب في حضرته بازدياد كبير . ومع هذا فقد
حسب فيراتا حياة الانفس القليلة ، وقضى بحبسه احد عشر عاماً
وبجلده كل عام مائة جلدة ! وبينما كان الناس يقبلون اعتاب
القاضي ، كان الشاب المتهم يسأله : « أهذا هو العدل ؟ ما
مقياس عدالتك انت ؟ من الهب ظهرك بالسوط لتعرف ما هو
الجلد ؟ وكيف تحصى السنين على اصابعك كأنهم رقم عابر ؟ فهل ضمك
السجن لتعرف ألم السجين ؟

ونظر فيراتا في عيني الشاب فاذا هما متجبرتان كالعينين
اللتين تسمرتان في وجهه صباح المعركة .. ومضى عليه ذلك الليل
ابيض اللحظات ، ولما كان الفجر ذهب يلثم طرف الرداء
الملسكي :

- ارجو مليكي المعظم ان يمنحني إجازة شهر عسى اعرف
الحق الصحيح خلاله !

- ستفقد مملكتي عدلك .. ومع ذلك فلك ماسئت .
وودع فيراتاهله مساء ، وامر ان لا يسألوا عنه حتى يمر
شهر كامل .

وفي منتصف الليل كان شبح اسود يخرج من دار القاضي
الى السجن .. وفتح له السجنان دهشاً ان يحضر قاضي القضاة في
الليل اليه . ولكنه قاده مع ذلك الى حيث شاء .. الى الشاب
السجين في الاعماق تحت القبة الصخرية وابواب البرنز . وقد
صرف القاضي حارس السجن حين احتواهما الظلام الرطيب بعد
ان اخذ منه مشعله . ونزل خمس طبقات من الادراج وضوء
المشعل يثب في احشاء الظلام كالوحش المفترس حتى فتح زنزانه
الشاب السجين .

اخبره انه ، يريد ان يختبر عدل احكامه وان يبرأ من الخطيئة .
فهو يرجوه ان يعطيه ثيابه ويخرج من السجن بدلاً منه شهراً
واحداً على ان يلزم خلاله الصمت ..

وخرج السجين بعد ان قص حية فيراتاه وشعره القضائي
الطويل ، وركع امامه يبكي . وفي صباح اليوم التالي جلد
فيراتاه علانية دون ان يعرفه احد . وحين صب اول سوط على
ظهره العاري اطلق صرخة حرة واطبق شفتيه على اسنانه
المصطكة ، وفي الضربة السبعين غشى عليه وحمل بعيداً

كالوحش الميت •

بعد ايام حين ثاب اليه رشده ، والتأمت جراحه ، كان عالم جديد يتكشف له .. لم يعد يشعر بمرور الزمن الا من رشح الماء بسقف الصخرة ، ولكنه كان يزداد صفاء يوماً بعد يوم ، حتى لقد كاد يحس في اعماق ذاته جذور الارض الصخرية السوداء وهمس الفلك الدوار ! وفي اليوم الثلاثين ، سمعت جلبة عظيمة خارج السجن ، ووطئت لأول مرة قدما الملك درجات السجن الدنيا . ودخل العاهل الكبير على فيراتا يعانقه :

- لقد سمعت بضنيحك ، انه عمل ما سجله احد من آبائنا ايها الرجل الصالح .

على ان فيراتا كان يشكو ألم عينيه من مواجهة الضوء فجأة فوقف كالشارب الثمل يسنده الخادم وقال :

- لقد دعوتني الرجل الصالح ، ولكنني اعلم الآن ان من يصدر حكماً على غيره يظلم .. وفي سجونك كائنات انسانية كثيرة تدبل باحكام اصدارتها أنا .. ان مقابلة الشر بالشر قانون ظالم ، فاطلق سراح السجناء ، إن أنينهم ليملاً نفسي خجلاً !

وقال الملك : سيجلس للاحكام بعد اليوم في صدر قصري .

- رحماك يا سيدي اصبحت لا اصلح للقضاء !

- ستكون إذن مستشاري .

وعاد فيراتا يستلم ركبة الملك :

- اقلني يا مليكي . إن السلطة تعري بالعمل . ولقد

اضحيت اخشى الظلم فان شئت ان اناى عن الخطيئة فدعني اعش
في داري هادئاً .

- لك اذا شئت ذلك . وانه لانخر لمملكتي ان يعيش في
حدودها رجل برىء من الخطيئة مثلك !

وقضى فيراتا ست سنوات في عزلة داره يصلي ويقرأ
الحكمة ويواسي المعذبين في الارض ، واصبح الناس لا يلقبونه
بلهعة السيف او نبع العدالة ولكن صار الآن (ساحرة
المشورة الصالحة) ... وذات مساء سمع صيحات عنيفة ووقع
سياط في مقره ، فوثب ليوى احد اولاده يعاقب الخدم ،
وكانت السياط تنهش من دم الخادم ولحمه ، وشخصت عينا
الضحية إلى وجه فيراتا فاذا بالعينين المتعجرتين تطلان منها !
اسرع فيراتا فامسك بالسوط وعرف ان العبد كان يتأخر
بجلب الماء من الينبوع الصخري إلى المنزل ويحمل في زراعة حقل
الرز الواسع . فلما عوقب عدة مرات هرب وعاد به اولاد فيراتا
مجروراً بالحبال دامي القدمين والاكتاف والوجه .

كان الخادم ما يزال ينظر الى فيراتا بعينين كعيني وحش
ينتظر الضربة القاضية من السفاح . وقال فيراتا :

- اطلقوا الرجل فقد كفر عن خطيئته !

ولكن العينين بقيتا تلاحقان فيراتا الى حجرة وهناك فكر :

بأى حق اسلب أنا واولادي حرية هذا العبد . وإذا لم
يكن من حقني ان اسجن احداً سنة او يوماً فكيف اسجن

العبد في حدود ارادتي الخاصة ؟ وبأي حق آكل ما يزرع ؟
واشرب ما يتعب بنضجه وحمله من الماء ؟ ولماذا اعيش كالعلة
الحقيرة على دمه ؟

وسجد فيرانا شكر الله فلما رفع رأسه كان رأيه قد استقر على
امر : سيطلق كل عبده !. ولما اجتمع أولاده في الصباح حول المائدة
فاتحهم بقراره فقال أحدهم :

- أهذه هي حكمتك ؟ لقد جزيت المسيء بالمشوبة بدل
العقوبة ، فكيف نستطيع ان نضبط خدمنا الكثيرين بعد ؟.
وقال الثاني - انك توهن سلطة القانون . ان هؤلاء
عبيدنا، كما ان الارض ملكنا بما اعليها من فاكهة وداو فهل
نلغي الملك ؟.

وقال الثالث - ومن يسقي حقولنا حتى لا يتلف الرزق؟ ومن
يسوق الماشية ؟ وهل نصبح خدماً من اجل نزواتك وانت لم
تعمل عملاً بمدك طول حياتك ؟! ألم يتصعب عرق الآخرين
ليجدوا لك فراش الفس الذي تستلقي عليه ؟ أو لم يروح عليك
ثلاثة من الخدم كل يوم بالمرأوح ؟ وتريد ان نحرمان هذا
الذي قضيت فيه حياتك ؟! هل تريد ايضا ان نرفع النير عن
اعناق الثيران الى اعناقنا ؟..

وصمت الأب طويلاً ليقول : لن أصوغ مصير اي انسان
بعد . وليس لنا من الله سوى حق واحد هو حق الحياة وقد
احسنتم صنعا بتحذيري من امر ما زلت في غفلة عنه :

ان الرجل الصالح لا يقبل ان يكون امثاله من الناس بهائم
له ! وعليه ان يعمل لمعيشته بيده .. آمركم ان تطلقوا سراح
جميع العبيد !
وقال احد الاولاد:

- أنت لا تقبل ان تصدر أوامرك إلى أحد خدمك خوفاً
من الخطيئة فكيف تأمرنا وتتدخل في حياتنا وتخط مصيرنا ؟!
وأطرق الأب الشيخ طويلاً ثم رفع رأسه وقال :
- لقد علمتموني ما لم اكن اعلم . لن اضغط عليكم بحال ..
خذوا كل شيء .. فاني سائر الى حيث يستطيع العيش
بدون خطيئة !!

وحين جن الليل كان فيراتا قد صار بعيداً عن المدينة يجرر
عكازه . وجراب التسول على كتفه فيه بعض الفاكهة وبعض كتب
الحكمة .. واجتاز النهر العظيم إلى الغابة . وأوغل فيها اياماً
طويلة حتى انتهى إلى اصل شجرة من اشجار الدوح العظيم
قضى خمسة ايام وهو يبني حولها الحجرة ليجعل منها كوخ حياته !
ولم يكن قد مضى زمن طويل حين الفت الطير هـذا
الوحش الجديد ، كما هرعت اليه بعض القرود .. وعدد من
الوحوش الصغيرة والبيغاوات المرقشة . وانقضت سنتان واذا
بأحد الصيادين يشهد ذات يوم مشهداً عجباً في الغابة .. يشهد
فيراتا كالقديس الصغير بين اصناف الوحش والطير . وتخبر
الصيد زوجته وتخبر الزوجة جارتها وتخبر القرية المدينة ويزحف

الجبر إلى اسماع الملك فيأتي بزورق عليه ثمانية وعشرون مجداً
يقاومون تيار النهر إلى أعاليه وينزل على الطنافس لدى حيث
كوخ فيراتا :

- جئت لأرى معجزة الصلاح النادرة . لعلني اتعلم كيف
يكون الصلاح !

- من اعتزل الناس لم يعلم سوى نفسه ياسيدي . وحكمة
الرجل المعتزل تختلف عن حكمة الدنيا . وقانون التأمل ليس
قانون العمل !

- هل لك من أمنية أحققها لك ؟ .

- لم يعد لي شيء أتمناه لأن كل ما على وجه الأرض ملكي .
وعاد زورق الملك منحدراً في النهر بينما ذاعت شهرة فيراتا
في الآفاق كما يطير الصقر الأبيض ، وأطلق عليه في تلك الآونة
اللقب الرابع للفضيلة فأصبح يسمى (نجم العزلة) وصار القضاة
في كل مكان يحتمون أحكامهم بتولهم « لعل كلماتي تكون عادلة
ككلمات فيراتا . الذي يحيا حياته كلها لله . ويعرف
الحكمة جميعاً » !

وسرعان ما أصبح كوخ فيراتا قرية اجتمع اليها كل
صاحب تقوى وأطلق الناس عليها اسم مأوى الانقياء فلم يكن
يمر بها صياد لئلا يزجج عليها الهدوء العميق والسلم الروحي الخالد .
على ان فيراتا كان يتجول في الغابة ذات يوم . فوجد حطاباً
مريضاً اضطر ان يساعده حتى يصل القرية القريبة .. وهناك

سرت في الدروب موجة من الرقة والبشر وخرجت القرية كلها
تتلمس البركة برؤية (نجم العزلة) لكن فيراتا في نهاية الأكواخ
شهد امرأة ما ان نظر في عينيها حتى ذعر وتراجع الى الوراء ..
انها العبدان الجامدتان ايضاً ، عينا اخيه !

ولقد كانتا في هذه المرة تقطران بغضاً ! وتقدم فيراتا الى
الكوخ ولكن المرأة اختبأت في داخله وأما عيناها فظلتا
ترمقان فيراتا من مكانن الدهليز المظلمة في ضراوة عيني النمر
المتوقدتين خلال الادغال .

فشد فيراتا من عزمه وتقدم ، انه ما اساء في حياته الى هذه المرأة .
لم يرها قط .. فما غضبها ؟ ووقف على الباب ، كالمسول ، فسأله :

- وماذا تريد مني فوق الذي كان ؟

- أسألك رد التحية ، هل تعرفيني

- بلى انت فيراتا .. نجم العزلة !

- وهل اسأت اليك قط ؟

فابتسمت : - أسأت إلي ؟ لقد قوضت بيتي . لقد سلبتني
كل سعادي ! اغرب عني قبل اعجز عن كبح غضبي ! سأظل
أشكوك الى كل قاض من الاحياء كما أشكوك الى الله !

وامسكت المرأة بسكم فيراتا وقادته الى داخل الكوخ :
وهناك شهد في العتمة جثة غلام تطل من عينيها نظرة ساحقة
جامدة .. تلك النظرة القاتلة نفسها ! وقالت المرأة :

- انه ثالث ثلاثة من الاخوة . قتلته كما قتلت اخوته من

قبل . انظر هذا النول وهذا الكرسي الخالي وراءه . هنا كان
زوجي يغزل الكتان ويفيض علينا من عمله وخلقه الهاني حتى
علم بك فهجرنا إلى (مأوى الاتقياء) وقد مات اولادي
الواحد بعد الآخر من الجوع ايها المغتر .. فكيف تكفر عن
جريمتك حين افاضبك أمام قاضي الاحياء والموتى ، وكيف
تبرر إغواءك له بالعزلة وأنها سبيل القرب الى الله ؟

فقال فيراتا : - ولكني لم اعلم ان مذهبي سيفري غيري .
- ألسنت تعلم ايها الحكيم الذي غطت الكبرياء بصيرته ،
انك حين اخترت عملك اخترت الآخرين ايضا عملهم وطريقهم ..
وان ما استمر أنه انت قد يكون عند غورك الصاب والعلم ؟!
وانحنى فيراتا وخرج مسرعاً ولكنه لم يستطع ان يتضي
ليله في الكوخ فحمل عكازه والجراب الذي كان حضر به الى
الغاب وعاد ادراجه الى المدينة .. وذاع خبر قدومه فكان يسير
الى قصر الملك بين سورين حيين من الاعجاب والاحلال . وحاول
ان يرد تحية الناس بالتسامة ولكنه لأول مرة عجز عن الابتسام !
وعانق الملك فيراتا ولكن هذا تمرغ على تراب قدميه يسأله
صنيعاً وقال الملك :

- طلبك مجاب قبل ان تصوغه الالفاظ .
- سيدي لقد شئت ان اتجنب الخطيئة فلم استطع ..
- ولكن كيف يكون ذلك أيها الحكيم الصالح ؟
- لم اقع في الخطيئة عاماً ولكن اقدامنا مثبتة في

الارض . والاضراب عن العمل هو نفسه عمل : ولقد قررت من
الله لاني امتنعت عن خدمة الحياة .. كنت اخدم نفسي وحدها
واريد الآن ان اخدم غيري ، ان امنح قايي للناس !
ودهش الملك :

— ارادتك محقة

— لا اريد ! لا ! لا اريد ان اكون حر الارادة فلرجل
الحر ليس ح—راً والذي يخدم الاخرين دون ارادة هو
الحر الحقيقي !

وقال الملك : إني لا افهم امرك

— من الخير لك ألا يعي قلبك هذا . واربد وجه الملك وبدا
له كأن هذا الشيخ قد خرف ولكي يتبين الامر قال :

— أيعجلك ان تكون القيم على الكلاب في قصري ؟ .

فقبل فيراتا اعقاب العرش شكراً وعرقانا . وذهب الرجل الذي
منحه الناس القاب الفضيلة الاربعة الى حظائر الكلاب يرعاها ..
وخجل منه أولاده وتأفف منه الناس وانكر عليه عمله الكهنة ..
ولم تمض شهور حتى خمد ذكر الرجل .. ولم يعرف الناس
بعد ذلك من امره شيئاً .. ولعله توفي !

* * *

وبعد فهذا فيراتا .. لقد ذهب بنا في آفاق القصة ولكن
هل أبعد بنا عن الطين النبيل ؟ .. ما اعتقد فقد وصل بنا الى
لب المأساة ! .. لقد أعدنا الانسان الناشئ من الطين الى افق

الطين اولا ثم اسكتنا غرور العقل عنده ثم تسافطت ، كالقشور
الجافة ، كانتفاضة الخريف ، كل محاولات الخير انطاق التي حاولها فلا
الشجاعة ناجعة ولا الحكمة بوافية ولا العمل ولا الزهد المطلق !
ان اقصى اللحظات لحظة تتبدى فيها كل القيم للمرء وكأنها على
مسافة واحدة من الخطأ والصواب .

ومع هذا فشيء واحد يبقى بعد طول النضال . ولف
الدروب اليائس .. شيء واحد هو قوام الطين النبيل وهو
ذلك القلب الانساني السامي الذي يتعذب !

إن تاريخ الانسانية الحقيقي انما كتبه المعذبون في الارض ،
لا عذاب الجسد ولكن عذاب الروح والقلب . كتبه الذين
تمزقوا اربا اربا ليهبوا السعادة للآخرين .. اشبار الارض التي
فتحتها الاسكندر ما بقيت له والقمل الذي اقامهم هم جنكيز
كالا هرامات على كل دروب .. سبقوه الى الفناء سنوات معدودة
فقط . ولكن الاديان التي جاء بها الانبياء ، والمذاهب الاجتماعية
التي يدعمها المناضلون وشعر الشعراء ومبتكرات العلماء هي
وحدها الخالدة .. هي وحدها تراث الانسان الحقيقي وبرهان
نبيل الطين !

وبورك القلق وبورك التمرد . فهما وقص
الطين على التجهيم ، وديب السمو فيه هما سميل
الانسان الى الله .. ان الف موكب تمر الآن في قلبي ، ارى
فيها من ابتكر النار ومن علمنا صنع العجلة ومن حاك اول

مزقة من نسيج ، ارى فيها المعري بجوار رامبوود وستونفسكي
الى جانب باستور ويسوع الناصري مع بيتهوفن وابن رشد مع
بوذا وماركس .. اراهم جميعا وعلى كتف كل منهم صليبه
الفادي .. وماذا على الطين لو سال دماً وشوكا ؟ اليس بذلك
وحده يثبت نبيله ؟!

* * *

في ركاب الشيطان

« ... ذلك القلب السامي الذي يتهدب »

أما الشيطان فنعرفه أنا وأنت ، وليس بين بني آدم منذ
زل آدم وادارت وجهها حواء لتضحك منه ، من لا يعرفه فيتعجبهم
له أو يهش . إنه الشخصية الثانية في تاريخ الانسان ، التي تقابل
وعيد الله الآجل باغراء النعيم العاجل وتزين الفحة لذوي الحياء

والسفه ، لذي الحلم والغاية لناسك الجبل ... وبالرغم من
اللاحي التي نطيلها كالاسلاك الشائكة لدرء هجماته وبالرغم من
استعد ثنا الله عليه ونحن نركع امام المحراب او المذبح « ربنا
لا تبلمنا » « ربنا نجنا من التجربة » إلا انا نقع في البلوى وفي
التجربة راغبين او كارهين . إن الشيطان في ضمير البشرتين
آمن عتيق نعطي به بطولة كل الآثام ونحمل عليه شتى الشرور
ولكن لسانه الحبيث وقرناه الراقصان وعيناه اللتان تنفثان
الشر ، تبرز دوماً من خلال الآثام والشرور وتظل قمة همتها
الساخرة الرهيبة ترن في اعماقنا ونحن نركض هرباً منه او اليه !
إنه سلة المهملات التي نرمي اليها باقدارنا لنتخلص منها حين نحار
أين نذهب بها !

ولكنني لست عن هذا الشيطان المبتدل بمحدثك . والا
لحدثك عن شيطاني المستسر وحدثني عن اخيه ، شيطانك انت
واقضحت مني ومنك هواجس وسرائر نضن بها على النور
ونخشى عليها خائشات الاعين (بالرغم من انها هي كل عقدنا !!)
وانما اقصد الى شيطان نبيل آخر وقد تعجب ان امنحه صفة
النبيل غير انه استهواني منذ عهد طويل وما حملت مرة في ملامح
احدى العبقريات إلا اطلت علي من خلالها سجنته فارى نظراته
في مقلتيها ولهاثة على شفقتيها !

هل سمعت بيتهوفن أو شوبان ؟ أم وقفت امام لوحة ليكل
أنج أو غويا ! أم قرأت وايلد أو بيرانديلو او كفكا ؟ أو

سأريت مرة جنون نيتشه او هولدرلن او كلايست ؟ انك ان فعلت وادركت النسب الذي يعقد ما بين هذه السلالة الفاوستية (المقدسة - الملعونة معاً) التي ندت عن القطيع ومدت لسانها للراعي والرعية !.. ان فعلت عرفت اي شيطان اقدم لك . لست أدري إذا كان العرب الاوائل هم اول من اكتشف هذا الشيطان وعرف منزله من عقرو جمراته السائلة على اللسان ولكنه - على ما يظهر - كان إذ ذاك صغيراً لا يضع القلوب وساذجاً لا يعرف تعليم الشذوذ وضعفاً لا يدفع بضحاياه الا :
اللانهاية والى ظلمات اللاوعي ... كان يكتفي مثلاً بان يرمي بالحطينة في غيابة الجب عن يدي عمر ويفضح عمر بن أبي ربيعة بين الحبيج وينتهي بيبشار تحت سوط الجـلاد ... لم تكن للشيطان إذ ذاك مشكلة ولا كانت له نظرية ومريدون وإنما بدأت مشكلته منذ اصبغ الابداع مأساة لا هواً يملأ الفراغ ، وكانت له نظرية ومريدون منذ اضحى « القلق » ابرز ميزات المبدع في الحضارة العالمية الحديثة .

ولا ادري بعد كيف اصور لك ملامح هذا الشيطان . اني لم اقبله إلا من خلال المبدعين . فكأهم شرب من نبعه المسحور وكأهم سار في ركابه . وليس الدكتور « فاوست » الذي خلته غوته ، هو الوحيد الذي استجاب لنداء « مافستو » حين تبدى له وقال :

« - أنا من تلك القوة التي نيتها ابداء نية السوء ، وصنعها

أبدأ صنع الخير ... اطلق لنفسك العنان كما تشاء وعلى ان
انيلك ماتريد .

فاجاب فاوست :

— اريد ان اشرب بالكأس التي يشرب بها سائر الناس
وان ارقى إلى اسمي غاية ثم اهبط إلى اعماق هوة ... ولكن
ويحك ما نطلبه مني لقاء ذلك ؟ »

انهم كثيرون اولئك الذين لم يصعدوا لاغراء هذا الداعي
الآسر فانه ادوا له في لحظة من اللحظات وماعوه وباعهم وتمت
الصفقة في صمت اشبه ما يكون بصمت الغابة قبل العاصفة !

والمبدعون جميعا يعرفون هذا الشيطان فيدعونه تارة «الوحي»
واخرى « الفلق » و«احيانا « الألم » ورابعة « القلب السامى
المعذب » وقد يسمونه باسمه الصريح كما فعل فولتير وغوته
وتزفابيع ولكنهم يتفقون دوماً على مأساة داخلية دامية ونضال
لاهب مفهم بالبطولة ورغبة جاحدة تسحق الوجود سحقاً للاندماج
في اللانهائي وفي الجهول وفي العدم . والمبدع في ركاب شيطانه
كغفنة انقضاء تسير نحو قدر لا دفر منه او كبروميتوس الذي
سرق النار المقدسة ليعطيها للفانين على الارض ودفع ثمن ذلك
كبده التي اوكلت بها الآلهة نسرأ ينهشها صباح مساء !

وإذا كان بعض المبدعين قد تمرد على هذه القوة فوق
الانسانية فخلق جراحه وانتصر عليها بالابداع نفسه مثل رافائيل
وغوته وشكسبير وابسن فان بعضهم الآخر قد غلب على امره

ووضع يده جهرآ في يد الشيطان ولنسرع الى القول انهم نوادر
اولئك الذين يستطيعون تحمل مثل هذا الموقف البطولي
فيواجهون العدم دون ان تزلزل بهم الاقدام وتسبحو قبيحهم عند
انفسهم فلا يستحق شيء لديهم ان يغيروا حياتهم من اجله .
انهم ينفون عراة للفحات الصقيع وحديدن مفتوح الصـدر
للعواصف . ومن هؤلاء آنجلو ونيتشه وكلايست وبيتهوفن
ونوفالس ودوستويفسكي ورامبو (في مرحلة ابداعه)
وتولستوي (قبل ان ينهار فيعود في آخر حياته الى نقطة البدء
ليستريح في ظل الله الذي انكره) !

والمنتصرون والمغلوبون سواء على كل حال في النضال .
سواء في صراع القوى الشيطانية - المبدعة ، سواء في معاناة هذه
التجربة الحية وتحمل هذا القدر الفاوستي ! لكن الناس يحكم ما
في انفسهم من حب للمحافظة والهدوء وما يسيطر عليهم من
افكار « بورجوازية » تكره الفوضى حتى في نفـها ، يعجبون
بالمنتصرين ويمتدحون ما في انتاجهم من نظام واتساق وما في
حياتهم من احترام واخلاق وتوازن و... « كلورفورم » !
وتخدعهم مظاهر البساطة والهدوء في الوجوه عن اغنف الالهواء
واظلم العقد في الاعماق ويؤوب المغلوبون على امرهم امام
« القلق الحصب » والمقدوفون كالحلم او الاعصار خارج ذاتهم ،
بالكره والانكار ويوصرون بالشذوذ ويلحقهم صيبة الفكر

بجسارة الحرمان لانهم جرح علم راحة الناس و « نشاز » في نغم الحياة الرتيب !

لدي هؤلاء المغلوبين - المحكومين فقط يخرج الشيطان من العتمة ليعمل جهاراً فيقطع اولاً كل صلة بين عباده وبين الواقع والحياة : فلا عائلة لهم ولا مال ولا رابطة مع ارض أو وشيجة مع وسط ... طبائع شاردة لا جذر لها في مكان ، غريبة امام كل وجه . وينمي الشيطان هذه الشخصية التي تتضاءل امامها كل القيم وتذوب الاعتبار . أليس بدته من هو الذي توقف عن العزف وانسحب من حفلة لاشراف بروسيا حين سمع اثنتين تتحدثان فلما اعتذرتا بان الحديث كان عن الملك اجاب : وانا ايضاً ملك ؟! أو ليس المتنبى هو القائل :

أنا من أمة تداركها الله غريب كصالح في ثود ؟
ويهب الشيطان اخيراً لمن في ركابه ابداعاً اصيلاً قوياً
صيغ من النشوة ، من الغريزة ومن الحمى ومن الوثبة الحية .
وهو لهذا فن ملء بالمبالغة وقوته هي في خروجه من اطار
المألوف والعادة وفي هذا التوق المتأجج فيه للاتصال بالالانهاية
وبالبدائي وبالسديم الذي تتكون منه كل الذوات الحية !
أما المغلوبون انفسهم « فيجهلون ما هم ؟ وما الطريق الذي
يسلكونه لانهم لا يفعلون سوى ان يخرجوا من اللانهاية
ليذهبوا الى اللانهاية » .

أرأيت إلى شهداء المسيحية الاوائل ، كيف كان نيرون

يلبسهم الملائكة المشتعلة فيندفعون راكضين في المسرح وهم
شعل حية ، بين ضحك المتفرجين وصخبهم لا يدرون اين
يذهبون ؟ ام رأيت الى المجنون (الذي تحدث عنه تروايغ)
جنون (آهوك) يثب فجأة من كسله فينتضي خنجره والزبد
هلء شذقيه ويركض كالسهم قدماً امام نفسه في طريق مستقيم ،
مستقيم كله هرب ... لا يعلم الى اين ؟

قد يكون ذلك الشهيد او هذا الاموك « صورة لهؤلاء
المبدعين الذين يندفعون كاللهب المنفوث في طريق مجهولة المبدأ
أو المنتهي ! وقد يظنون انهم يناضلون ويعملون من اجل
حريتهم السامية . ضلة ما ظنوا !! انهم يبتدعون هذا المثل
الاعلى ، في الواقع ، ليعطوا معنى لحياتهم التي تبقى بدونها ولا
معنى لها !

أما الابداع الذي يتمتع احبانا بين ايديهم ، فهو الثمن
الذي يتقاضونه لحياتهم السليب . انه كالتاعة الشهاب وهريوي
في الظلمة .. تحية وداع الوجود ، وتبلغ المأساة ذروتها حين
يأتي دور المصير الذي ينتظر هؤلاء المغلوبين المبدعين . وهو
ابداً مصير قاس عنيف « فالضيف الرهيب الذي يسكنهم لا
يصل الى وطنه ، الى اللاحـددود ، الى عنصره الاسامي الا
بتحطيم الحدود والارضي وبسحق الجسد الذي يسكنه .. ولا
يكون هذا الضيف اشد وضوحاً وسلطة منه حين تتمزق نفس

المبدع وتنشعث بضغط الألم وتنفذ العين من خلال الجراح الى
اشد الاعماق صميمية» (*)

وإذا بلغ الشيطان من معبوده هذا المبلغ هجره الى اللعنة
وإلى الوان من الاقدار والمصائر : فاما السـل واما الزهري
الحبيث ، وقد تكون النهاية الى الجنون او الى الانتحار .
وتعبر النفوس المعذبة عن ضغط تلك اللعنة الاخيرة بهذا الحنين
الى الموت الذي نلقاه في كل ابداع اصيل والذي تلتقي فيه
رعشة الحب بلذة الحرية .

* * *

إني في محراب نفسي كثيراً ما اصلى . ولكني على أي
حال لا أدعو ان يبعدني الله عن ركاب الشيطان .. « ذلك
القلب السامي الذي يتعذب » .

(*) بعض هذا الحديث مقتبس من ستيفان تزفايغ .

الفن والشیطان

بين الفن والشیطان ود عتيق ، وصلة من التعاون واشبعة
تهزأ حتى من التاريخ ! وحين مر في خاطري أن أتكلم عن الفن
والشیطان ضحكت في سري .. ضحكت ان فتحت لي كوة
لمعابثة الشیطان في ميدانه الحر ؛ ولكني حين بدأت الكتابة ،
تبينت سريعا ، ان الشیطان هو الذي ضحك مني وغرر بي ،
لأتكلم عنه ، ولأكون غرابه أمام الناس ، والمتطوع لرد اللعنة

التي تقترون دوماً باسمه ، على اني لا شأن لي في الواقع بالشیطان
الرجيم ، ولست بمتكلم عن ذلك الوسواس الخناس الذي يحيطه
الناس بالتهاول ومرعب الصور : فيطيلون في قرونها او
يقصرون ، ويملؤون بالشرر عيونهم الطولانية أو باللهب ،
ويغمسون بالسحر الاسود اسمائه وهمساته :

ويقولون إنه :

يلف ثعباناً على خصره	يكمن في نابيه كيد القدر
ينبعث الدخان من شعره	ويتلظى في مقلته الشرور
كأنما الله لدى خلقه	زوده بكل ما في سقر !

إبليس هذا هو المرأة الاخلاقية لما نجتزم من شرور ولا
شأن لي به ولا بالأخلاق هنا . ولكني سأتكلم عن شیطان آخر
من عالم آخر ، لم يخلق من مارج من نار ولا هو المشجب
الذي نعلق به كل آثامنا !.. إنه خادم أو سيد هناك في عالم
الجمال ، يعرفه كل مبدع مع انه سديمي الكيان ، مظلم العنصر
ندعوه أحياناً بالوحي وأحياناً أخرى بالالهام وقد نسميه شیطانا
او نحسبه من طينة الآلهة . لكن ما اكثر الذين ينتظرون
مروره بصوامعهم ليرمي بين ايديهم بعض زهره وعطره وسمومه
ولست أزعم طبعاً أن كل فعال فعال الخير ! ،

هذا الشیطان قديم الصلة بالبشر ، قديم قدم الحس البديعي
فينا ولعله وجد مع وجود الانسان وولد مع مولد قلبه وحسه :
رافقه في الكهوف الاول ، ومشى معه إلى هياكل المعبودات ،

كما زين له الرقص وسقاه الاسطورة والشعر . وإذا شئت أن
 اكون اكثر دقة قلت ان الانسان أناط بهذا المخلوق الوهمي
 مهمة توسعة الحياة وترتيبها . أو لسنا لهذا خلقنا الفن ؟
 وهذا الشيطان إلى ذلك ، تعرفه كل الامم : عرفه الهنود
 في الزمن الاقدم والفرس . كما سماه الرومان (موزا) وعبدوه
 وآمن به الاغريق أيضا فكان سقراط يعلن ان له شيطانا خاصا
 يوحى اليه بما يريد . أما العرب فكان عندهم من هذا الشيطان
 قبيل كامل ذو منازل وثارات ، ومراكب من الحيوان
 وعزيف يصم الأسماع ..

ولقد عرفتم عبقر ، ذلك الوادي المجهول الذي تنزله
 طوائف الجن زمرأ تزحف حول زمر . وفيه كما قال شاعر :
 غمام زرق على متنها منازل جدرانها تسطع
 جهاتها الأربع مرصودة تحرسها الزعازع الأربع
 ما أفلت الانسي من زعزع الا تلقى صدره زعزع

ولكن قطان ذاك الوادي الضبابي الرهيب على اتصال
 دائم ببني البشر فكل شاعر واديب زميل في عبقر يمه بالوحي .
 هناك يعيش (مسجل) شيطان الاعشى و (عتية بن نوفل)
 صاحب امريء القيس و (ابن العجلان) جني طرفة و (عتاب
 ابن حبناء) رفيق ابي تمام و (ابن الشيصان) عفريت حسان
 و (حسين الدنان) شاعر ابي نواس و (سنقناق) بشار بن برد !
 وهناك موطن الهوبر والهوجل اميري الشعر الجيد والردى
 بل إن عبقر عند العرب مصدر كل رائعة مدهشة من القول

والعمل . فتدمر جنـة البادية ، إنما بناها الجن لسلیمان !
وايوان كسرى :

ليس بدري أصنع إنس لجن س كنوه أم صنع جن لانس !
وأخيراً أو اسنا لعبقـر فنسب كل مبدع عبقري ؟ .
وكما ملأ الشيطان خاطر العربي فهو كذلك يملأ وهم الغربي
اليوم وليست تقتصر صورته على صورة (الشيطان الاخضر)
الشعبية ، بل تتمدها إلى الوان شتى من الشياطين .. منها (ربة)
فيني الرفيقة ، ومنها الرجم الذي ركب نيتشه حتى الجنون ،
والعين الذي اورد كفكا مورد الهلاك ! .

واحسبني هنا استطيع التساؤل عن السبب في رد الالهام الفني الى
الشيطان دون غيره ! واستطيع في نفس الوقت ان اجيب ان
السبب في ذلك هو اولا الروعة الساحرة التي تتجلى في العمل
الفني .. والسحر في عرف البشر من عمل الشيطان ، ثم ما عرف
به الفنانون اجمعين من شذوذ واضطراب .. وهي امور متصلة
بالشر والشيطان . واقد صنف افلاطون في كتابه (فيدر)
الوحي الفني بين انواع الهذيان الاربعة وذكر ارسطو الفنانين
المجانين ثم عمم وقال : « ان اغلب العظماء سوداويون » وجاء
اخيراً لومبروزو فعرف العبثية بانها شكل مخفف من مرض
الصرع في نوباته المفاجئة والعنيفة !!

ويقولون ان شذوذ الفنان هو الضريبة التي يؤديها ثمناً
لابداعه وما من داخل الى حرم الفنان بمغفو منها : يدفعها من

دمه احيانا ومن سمعته وآلامه وحياته .. انها لعنة الفن .
على اني لست ادري بالضبط ما الذي يجعل إتاوة الشيطان
هذه في حضارتنا الحديثة اليوم ، اقسى واعق جراحاً ؟ لست
ادري ما الذى يجعل حياة كل فنان مأساة وفلذة من جحيم ؟ اهو
عمق النزوع للاندماج في الانهائي وفي المجهول ؟ ام هو اليأس المر
من حضارة المادة ؟

وأستعرض الفنانين في تخيلتي موكباً بعد موكب فاراهم
جميعاً ضحايا ذلك « القدر الفارسي » الذي جعلهم مبدعين !
قلائل اولئك الذين سيطروا مثل غوته ورافائيل ، على
شياطينهم فاحتفظوا بابتسامة الهدوء في الاعين والقلق الخصب
يقتت ما وراء الضلوع !

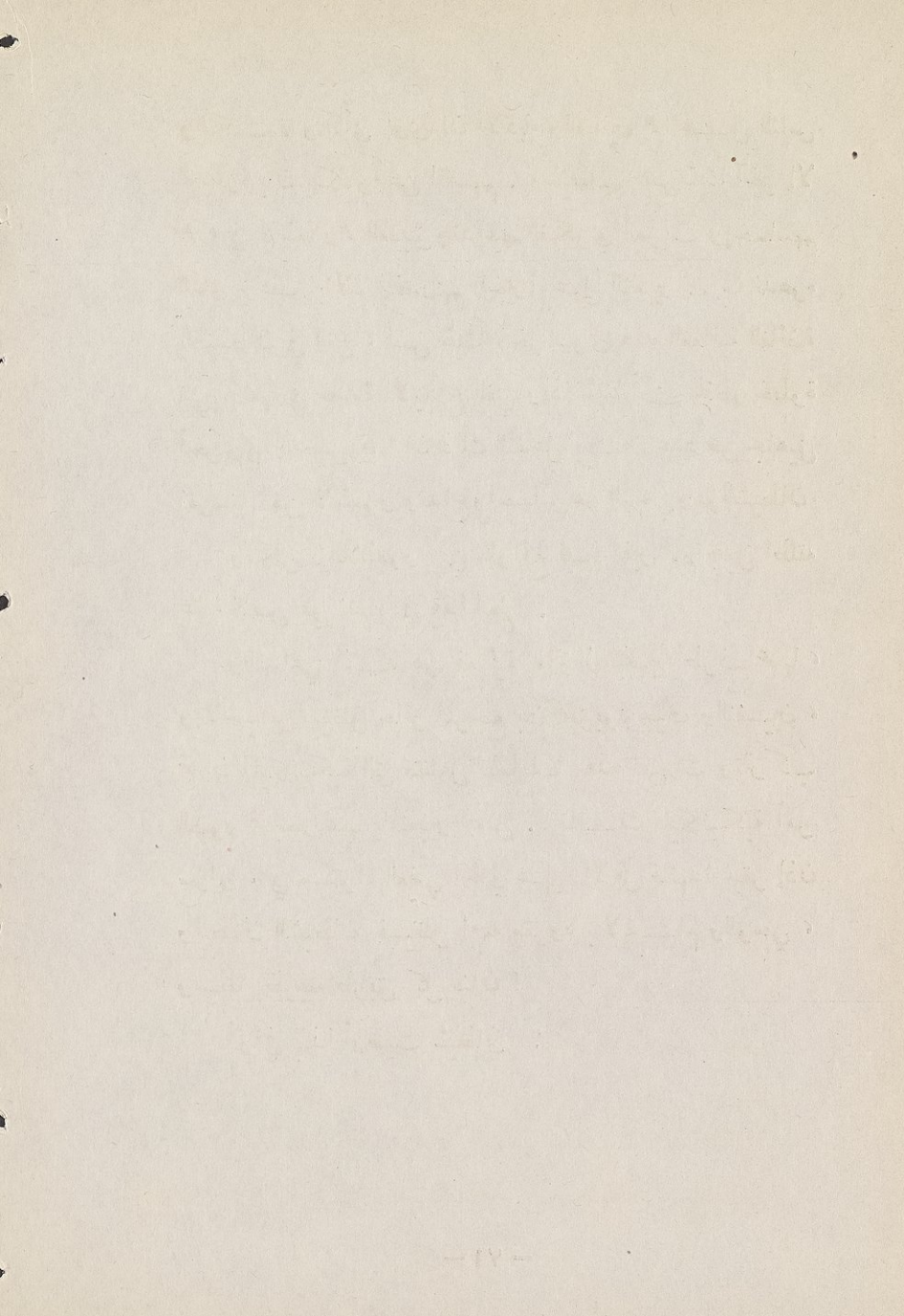
اما جمهرة الموكب فاشبه بمظاهرة لمشوهي الحروب :
فان كوخ مثلاً يقطع أذنه وينبعثها هدية لفتاة قالت له ان
أذنك جميلة ، وهولدر لن يقضي ٤١ سنة في ظلمات الجنون
وموزارت يموت مسلولاً فلا يجد من يمشي وراء جنازته سوى
حفار القبور . ودونزفال يلفظ انفاسه في الوحل تحت مزراب
مطر ! كلهم من تلك الطبائع الشيطانية التي قطعت كل صلة لها
بالمحدود وبالأرض لتتزع الى اللامحدود والى ما وراء الجسد .
« ان صاحب الروح الممزقة هو وحده الذي يعرف النزوع الى
الكمال ومن قدر عليه التشرّد هو وحده الذي يبلغ الانهائية ! »
هكذا يقولون !

وترضى هذه الارواح الشاردة عن نفسها او تسخط ،
ولكنها في الحالين تسلم القياد للشيطان الذي يقذفها خارج ذاتها
لتركض دون ان تعلم ايان المصير ؟ كشهداء المسيحية الاوائل
الذين كان يلبسهم نيرون الهالهل المشتعلة فيندفعون را كضين
في مسرح الالاعاب لا يدرون اين يذهبون ؟
ويبلغ الشيطان منتهى سؤاله منهم حين يغريهم بالمزيد من
الابداع والمعرفة والاتصال باللانهائي .. فيجهدون اعصابهم
بالمنبهات ، ويسرفون فيها .. ويبدأ بذلك الانهيار !
طريق الشيطان هي التي اوصلت (بو) و (موسى) مثلاً
الى الكحول وقادت موباسان الى الافيون والكوكائين وبودلير
واوسكار وايلد الى الحشيش ! ودوستويفسكي الى القمار .. ومع
ذلك فقد كانت هذه الطريق هي نفسها طريق الابداع العبقري !
وبعد فمن هو أو ما هو هذا الشيطان ياترى ؟ ما عنصره
الفنان ؟ في إحسانه وإساءته على السواء ؟ لقد التفت ملاحظه عدد
من ادباء الغرب أو هم حسبوا ذلك وطوقوه بعدد من الصور
لعل أبرزها صورة مفلسو عند غوته وصورة الشيطان الاعرج
عند (لوزاج) والشيطان العاشق عند (كازوت) . وشياطين
برناردشو واوسكار وايلد وبرنانوس . ولكن هل عرفوا حقاً
ذلك الشيطان ؟ أم أنه كان يفلت من ايديهم ضاحكاً كل مرة
بعد ان يتروك على اوراقهم صورته الزائفة ؟ . كأنني أرى انه ليس
ثمّة اقل شيطانية من تلك الشياطين المقيمة بين صفحات القصص

والكتب . وكأني أرى ان الادباء والفنانين هم اقل الناس
جدارة بان يتكلموا عن انفسهم . وشيطانهم ليس شيئاً آخر إلا
هم ، في لا شعورهم العميق وتداعيمهم الفكري الغريب وإحساسهم
الذي يعرف بالالم وقدرتهم اخيراً على التعبير .. ما ندعوه
بالشيطان في الفن ، ليس شيئاً آخر سوى هذه الفعالية الفائضة
التي نضعها في خدمة الابداع الفني وإذا شئنا أن نخطو خطوة
أخرى في التحليل قلنا ان ذلك التفاعل بين عدد من مجاهيل
نفوسنا: من لا شعور وتداع وإحساس هو الوحي وهو الشيطان.
ولكن « اللاشعور » في الواقع ليس غير اسم جميل أطلقه
علماء النفس على نقص في هذا العلم !

والتداعي إنما هو فعالية ما زال نجهل طرف عملها ،
والإحساس سيظل حائر المرجع بين الفزيولوجيين والنفسيين ،
ثم ان الميكانيكية التي تتفاعل تبعاً لها هذه المبهات وتتركب
الصور ثم يعبر عنها بالتعبير الجميل .. تلك الميكانيكية أمر
سراي ، في مستوانا العلمي الحالي على الأقل فلتهدأ عبقر إذن
وليطمئن الشيطان فسيظل اسمه مقرونا بالالهـام والوحي ،
وسيظل طريقه طريق كل فنان !

أتراني بهذا أرضيت شيطاني ؟



بهاء العلم والفن .

منذ حوالي ثلاثة قرون أو تزيد، حين رد الفيلسوف (بيكون) نظر الناس عن التأمل المحض إلى الطبيعة وإلى الواقع الملموس واختلط لهم فيها طرق الاستقراء والتجريب، وحين ميز العالم (غاليله) بين الكمي والكيفي من صفات الاشياء أي بين ما يقاس، وحين زاد (ديكارت) هذا التمييز عمقا بخلقه ثنائية الجسد والروح .. منذ ذلك الوقت عرف الناس ان منهجاً جديداً في

المعرفة قد فتحت على الانسان واخذت كلمة (العلم) رمز العلم الحديث تحل تدريجياً محل كلمة (لوغوس) ! ومشت الانسانية في هذه الطريق ثلاثاً سنة !

ما كان بامكان احد ان ينكر ، حتى عهد قريب ، ان كشف المنهج العلمي سجل مطلع العصر الذهبي للانسان لا سيما بعد ان نجحت دراسة الكمي ، وذلت المادة ، ودخلت آلاء التطبيقات العلمية كل بيت ، وتطلعت الاعين الى ما وراء فلق الذرة .. على ان الكثيرين يرون اليوم ان ذلك الكشف كان غلطة فكرية كبرى ! غلطة لانه على الاقل مزق إهاب الفلسفة وانكر الفن - وهما وجهان اساسيان من وجوه المعرفة الانسانية - ولم يستطع ان يملأ وحده كل كيان الانسان . اما اولئك الذين يتعصبون للعلم فمصابون بنوع من الانحراف الفكري يأبى عليهم إلا ان يدخلوا من الباب الضيق !

أنا بعيد هنا عن ان انقد العلم او اعان كرهه وقصر نظره وبعيد ، في الوقت نفسه عن ان آتي في نصره الفلسفة والفن بقول جبهة : تقطع قول كل خطيب . ولكنني اجد الكثير من المدة والحماس في معارضة المنهج العلمي ومعايشة اصحابه بعض العبث . ان له ولهم ، في بعض الاحيان منطق الموظفين المالمين وتجههم التاجر في يوم تبوعات ! سأكتفي بمقارنة النهج العلمي بالنظرة الفنية . وماذا علينا لو غزلنا حول مباحث العلماء بعض الاحلام والاطياف أو سكبنا بعض الاصباغ والاحون على

معادلات الرياضيين ؟

نستطيع ان نبدأ الموازنة بين العلم والفن من نقطة مشاع
مشتركة بينهما . فمهما اختلفنا واختلف الناس في ماهيتهما
وحدودهما فقد لا يختلف في انها ظهرتان انسانيتان . اعني
انها : من الانسان وبالا انسان والانسان ولهذا فليس كل من
العلم والفن اكثر من جعبة حيل .. وحيل ابتكرها الانسان
لحل معميات الوجود . كل منهما قفزة لتحدى هذه الغابة من
الاسرار التي يسمونها الكون ومحاولة لاعادة دمج الذات
- حين تعي تفردا وعزالتها - في تيار الوجود الكلي . وفي
هذا تفسير ما يوافق انتصارات العلم والفن من فرح ونشوة
واطمئنان عميق . ولست اقصد بالطبع الوجه الصوفي الفاسفي
للمسألة ولا اريد التقريب بين نشوة الظفر بقاقون علمي او
الوقوع على رقصة مبتكرة وبين نشوة الاشراق والحلول عند
المتصوف ، ولكن يظهر ان كل شعور بالتوحد والانسجام
وبالكشف يرافقه موكب صاحب من الفرح النشوان فكأنه
يزيد من شعور الانسان بانسانيته العميقة وبتساميه على ذاته .
على ان العلم يكتفي بهذا القدر من مشاركة الفن فلا يكاد
يتفق معه في شيء كثير وراء ذلك !

فالعلم يقسم الوجود ليدرسه جزءاً بعد جزء والطبيعة
عنده مجرد ظواهر منفصلة : بعضها يجمع وبعض يراقب وثالث
يدخل المختبر ... وتفلت من بين اصابع العلماء الدقيقة تلك

الرابطه التي تربط الاجزاء وتعطيها معناها : تفلت الحياة ولا يستطيع العالم ان يعود فيرى الكون على انه وحدة عضوية متماسكة ما دام قد مزقه منذ البدء ! لا يستطيع ان يفهم جمال الثلج على القمم وروعة كليوباترا او موسيقى واغنر ! واني للمنظر الثلجي بالجمال وهو ليس اكثر من بلورات من الماء فوق حجارة عارية ؟ ومن لكليوباترا بالروعة وهي ليست اكثر من نسج وامصال متوازنة توازنًا فيزيائيًا - كياويا ؟ وكيف تهزنا (ترستان وايزولت) وهي ليست اكثر من موجات اهتزازية ذات تواتر محدود وفواصل معينة ؟

إن الفنان يبدأ ، بالعكس ، بالنظر الى الوجود ككل . ولعله من الاصح ان نقول إنه ينجح الظاهرة العابرة ، دفعة واحدة صفة الكل ويحقق المعرفة بالحدس المباشر دون مناقشة للحدود او غرق في الدقائق . كان بروننغ صادقاً حين قال : « لمتجادل الآخرون ومرحبا بجدلهم اما نحن فنعرف الموسيقى ، وهكذا كان غوته نموذجاً لكل شاب في (ورتز) بينما احتاج باستور لألف تجربة وتجربة كي يثبت عدم التوالد الذاتي ، وكانت سمفونية بيتهوفن الثالثة رمزاً لكل بطولة بينما لم يوضع رمز الماء إلا بعد جهود قرون من الكيمياء . وقد ذكر (غاريت) امثلة طريفة لتباين النظرتين العلمية والفنية : ذكر ان عالماً كبيراً قال بعد مشاهدة احدى المسرحيات الرائعة : « ولكن .. ماذا تثبت هذه المأساة ؟ » . وروى ان شاباً عالماً

نقد قول وردسورث :

« ... وعندئذ يمتليء قلبي سروراً ويرقص مع هذه الزهور » بقواه : ليس صحيحاً من الوجهة العلمية أن قلب الشاعر كان يملؤه شيء غير الدم كما انه مستحيل علمياً على ذلك القلب ان يرقص أو يفعل شيئاً دون ان يمرض ! إن امعن بعداً عن الخيال خير فهنا لهذا البيت ذلك الناقد العالم !

ثم ان العلم من جهة اخرى . موضوعي ، كما يقولون ، يقسم الوجود إلى ذات متألمة وموضوع تأمل . لا بد من هذه الثنائية فيه . وما من رابطة بين طرفيها سوى المقياس او الميزان او الموضع والتجرب . والطبيعة بمحدودها المادية المنتهية هي التي ترسم المدى الحيوي للعلم ومدى وثبته .

وسحقاً بعد ذلك للعواطف والقيم وما وراء هذه الطبيعة ! فالقمر ليس اكثر من كوكب هامد مشوه الصفحة بالبراكين والوان المغيب ليست اكثر من موجات كهربائية تلتوي في الآفاق ! واما كيف اضحى القمر سيمر كل شاعر وحبيب وكيف اضحى المغيب نبعة إلهام فلنسأل الفن !

إن الفن ، بالعكس ، ذاتي ومفرط في الذاتية احياناً والفنان « يضع نفسه بنوع من المشاركة الوجدانية - كما قال برغسون - داخل الموضوع » يحياه ويفنى به ويضفي عليه من عنده ألوان قوس قزح . إن يكون الذي حبس العالم في اطار الطبيعة هو القائل : « الفن هو الانسان مضافاً إلى الطبيعة »

وهكذا فالجبال التي لم يكن لها من قيمة بديعية في عصر اليونان
أو في الأدب العربي القديم أو في العصر الكلاسيكي الاوربي
اوضحت جميلة منذ ظهرت الابداعية في الأدب . والزهرة تظل
علما وسيلة لحفظ نوع الزهر : فمن برعم الى زهرة الى ثمرة الى
حبة الى نبات جديد وهكذا ... في حلقة من العبودية مغلقة
حتى تدخل قلب الانسان فيزول عنها مظهر العمل الدائب
وتضحى مرة بعد مرة رمزا للراحة وللحب وللطهر الحجبول
ولرقصة الاغراء في شدة بخيلة !

والعلم الى هذا يريد الوصول الى الحقيقة . دعونا من الريبيين
الذين يزرعون الحياة قلقا ووساوس ويتساءلون عن وجود
الحقيقة المطلقة . ولنقل ان العلماء يريدون على طريقته الخاصة
كشف الحقائق الثابتة والنهائية للوجود ، في حدود الكمي
منها على الاقل . أي في حدود العلاقات العرضية بين ظواهر
الطبيعة وما يمكن حشره في اطار القانون الرياضي .. (وان
طمعت أحرف هذا القانون المنمنمة في ان تحتوي الوجود كله
ذات يوم) اما الماهية والجوهر والكنة .. فقد كان من مبادئ
العلم الحديث الا يقرب امرها . والعالم اليوم لاهمه ماجوهر
الهيدروجين ولكن الذي يهيمه هو علاقته بعناصر الكون
الاخرى ولا يتسائل عن كنه الكهرباء او حياة الجحيرة
النباتية بقدر ما يحاول استغلال تلك وتحسين نوع هذه !
أما الفن بالمقابل فليس يصبو لغير الجمال وبقدر ماتبدو

الحقيقة واضحة محدودة رياضية بقدر ما يلف الضباب افق الجمال ويلونه بالهواء . ولكن الفنان يعرف بالحدس المباشـر ان التجربة البديعية خلاقة في جوهرها ، سواء كانت ابداعاً أم تأملاً . وما الطبيعة والوجود لهما سوى تكاءة عابرة ومبعث تحريض . يقول دولاكروا « الطبيعة معجم وليست كتابا ومواد بناء وليست بناء » ! واذا كان العالم يدرس طرق البناء الكوني فان الفن يخلق مثله في كل لحظة . كان الرسام كورو يرسم مرة في احد الحقول فاقرب منه أحدهم وأدهشه الا يرى من توافق بين الرسم والمنظر الاصلي فلما سألـه اجاب كورو :
« ما أرسمه ليس هنا ! انه مكان آخر ! »

والعلم بعد ذلك يهدف الى امتلاك الوجود وتسخيـره . لا بد للسيطرة على الطبيعة من معرفتها . هكذا قال كاهن العالم الاكبر بيكون . وكانت هذه الصيحة من الصيحات النادرة التي وجهت تاريخ الانسانية وملأته بالخـصب . أو ليست هذه المدنية القائمة من آلامها ؟ غير ان الفن يرمي الى امتداد الوجود وتوسعته . وإذا قال شكسبير على لسان هملت الموسوس « الفن مرآة الطبيعة » فانه لم يعدم ماخراً مثل اوسكار وايلد يعلق على ذلك بأنه إنما قال ما قال لاثبات جنونه !! إن كل عمل فني هو في الواقع اطلاق لعوالم لا حد لها وراء هذا العالم . ولم يكن أناتول فرانس مغالياً حين قال عن احد كتبه : « إن له من الصور بقدر ماله من الفراء . وتلك العوالم التي خلقها

دانتي والمجري وملتون وهوميروس لست شك في أنه كأنت
ولا يزال لها من الاثر في تاريخ الانسان بقدر ما لأحداث
عالمنا هذا ، عالم سفر التكوين ! ان الانسان يزج مخيلته دوماً
حيث يعجزه واقعه وهذا بكل بساطة هو العمل الفني ! علق
رجل مرة على صورة للرسام الانكليزي تورنر قائلاً : « اني لم
أرَ غروب شمس كهذا الغروب قط » فكان جواب تورنر
« ولكن الاتحب ان يتاح لك ذلك ؟ ألا تحب أن يكون
ذلك واقعا ؟ »

والعلم اخيراً ، في مجموعه ، اسار وقيود وعلاقات ترابط
محدودة والطبيعة بالنسبة للعالم نهائية . ويقف الفكر حيث
ينتصب القانون . لا يمكن لذرة هيدروجين ومثلها من
الاو كسجين أن تشكلا ذرة ماء ولا سبيل لان تصبح ١ مع
١ يساويان ٣ أو ٥ مثلاً اما في الفن فذلك ممكن ومعقول ذلك
ان الاثر الفني نقطة انطلاق وهمسة ايجاء وهو لهذا تترد وحرية
ولا تنتهي مهمته بانتهاء خلقه وابداعه . انه يظل ناقصاً حتى
يأتيه متأمل يقوم بعملية إبداع اخرى ينقله بها ، على الشكل
الذي فهمه به ، الى ذاته ، فهو في الحالين إبداع وتأمل إذن
ومبعث تحرر وانطلاق . وإذا قال سارتر ان كل عمل ادبي هو
نداء لحرية الآخرين فنستطيع بكل اطمئنان ان نعيم ذلك
على كل اثر فني . وكل تخسر الحياة من الشعر أي من الحرية

إذا هي اصمت أذنيها عن ذلك النداء .

* * *

ذكرت مرة قصة الشاعر الانكليزي جون كيتس الذي
ناقش اصحابه في احدى الولايم في أزمة الشعر واكتساح العلم
له في عصره فرفع كأسه الى شفيمه قائلاً :

— لعن الله نيوتن !

وشرب الجميع نخب اللعنة . لان نيوتن واحد من اولئك
الذين حطموا الشعر في قوس قزح وخنقوا الاحلام وطردوا
الرؤى عن الجفون ! إني إذا وجعت إلى نفسي وجدتي مع الفن
والفنانين . ووجدتي اهتف من وراء السنين ، مع كيتس :
لعن الله نيوتن !

شماره ۱۰۰

۱۰۰

در این کتاب که به نام "تاریخ ایران" است
مؤلف آن جناب آقای دکتر محمد علی
شاهین است که در این کتاب به بررسی
تاریخ ایران از دوران باستان تا
کنون پرداخته است.

این کتاب در ۱۰ جلد
منتشر شده است و در هر
جلد ۲۰۰ صفحه است.
قیمت هر جلد ۱۰۰۰
ریال است.

في الجمال

بدأ أنا تول فرانس كلامه عن (علم الجمال) مرة بهذه الكلمات :
« في علم الجمال ، اعني في الغيوم ... » يريد بذلك ان يشير منذ
الخطوة الاولى ، الى تلك الغلائل السرابية الرفافة التي تلف الفكر كلما
تناول بالنظر احد تلك الافانيم الانسانية الجميلة : الخير ، الحق
الجمال ... ولهذا اجدني ، في حيرة التيه ، إذا بدأت بالتساؤل
عن الجمال ؟ ما ماهيته ؟ وما حدوده ؟ وما عناصره ؟

إنها أسئلة يمكن ان نجيب عليها مازحين - وقد لا تنتهم في
مزاحنا هذا بالسخف - إن الناس جميعاً يعرفون ما الجمال ؟
ولكننا لا نستطيع ان نزيد على ذلك حكمة والجمال امر يشعر
به اكثر مما يعرف وإذا شئنا ملاحظته بالحدود والارصاف ضاع
منا وضمنا القديس اغناطيوس الذي ألقى على نفسه يوماً هذا
السؤال : ما هو الزمن ؟ ثم فكر وقدر وفكر ثم قدر فرأى
انه كان يعرف من حقيقة الزمن كل شيء حين لم يكن يخطر
في باله ان يلقي السؤال ، فلما تحررنا شفتاه به ضاع في مسارب
الفكر والنوى عليه سبيل الصواب !

والعل هذا هو الذي اتفق لجاهذة الفكر الذين بحثوا هذا
البحث منذ افلاطون ولونجين إلى هيغل وكروتش ولو شئت
متابعتهم في آفاقهم لكان علي ان ادور حول نفسي في اقبية
التعاريف الميتافيزيكية واستعير اقوالهم من ان الجمال تناسق
أو انسجام أو نسب عديدة أو صورة المثل أو انه صورة الحق
أو الخير أو الحب أو الكمال ... الى آخر ما هنالك من خبط
عشواء التفكير . ولشد ما اكره ان اورط نفسي في هذه
الدروب الكثيرة المزالت الجديدة الشوك ولكننا قد نستطيع
ثموين الامر ثمويناً عاماً إن نحن بدأنا فرأينا ان الناس رغم
اختلافهم في الجمال والجميل وفي عناصر الحسن وافاعي القبح
يتفقون في نقطة هامة هي اعترافهم ان في بعض ما يرون او
يسمعون او يعملون او يتخيلون صفةً او صفات معينة تلذ لهم

او تعجبهم او تثير فيهم بعض العواطف السامية ويسمون ذلك
جمالاً كما يسمون إدراكه ذوقاً .

من الحقيقة الأولية ينبت أمران هامان : أولهما ان الجمال
موجود ونحن نشعر به في الطبيعة او في الابداع الفني على السواء .
وثانيهما انه ليس من الضروري ان يعتمن بالخطوات الواضحة
الصفة او الصفات التي جعت من الجميل جميلاً ... فمن الاقوال
الشائعة بين الناس انه لا ينبغي الجدل في مسألة الذوق وفي هذا
كثير من الصواب فإننا لنعجز عن ان نفنع امرءاً بأنه مخطىء في
تفضيله سفينة التجري في الايوان على بحيرة لامارتين واغنية
الكرونك على السمفونية الخامسة لبيتهوفن ولكننا لا نعجز عن
اقناعه بخطئه في مسألة هندسية او في اعتقاده ان الارض منبسطة !
ذلك انا في مسائل الذوق لا ندري حتى كيف نبدأ الرهان ،
وليس السبب الوحيد في هذا ان القصيدتين معقدتان او ان
الاغنية غير السمفونية . ولكن لان مسألة الجمال تتبع متحولات
كثيرة معقدة ومتباينة اقلها ما تعلق بمبنى القصيدة وقوافيها-
وكلماتها . فواء ذلك ميول الشخص وعاداته وتربيته وثقافته
وزمنه وعرقه ووسطه ... إلى آخر ما هنالك . وكل منا إنما
يشرف على آفاق الجمال من زاوية معينة ولعله من المستحيل
ان يحتضن امرؤ في نفسه كل الآفاق المتناقضة دون ان يفقد
الكثير من توازنه بل لاقل من صفة الانسانية !
وقد نستطيع بعد ان نستخلص من اختلاف الناس ذلك

الاختلاف ان حقيقة الجمال يجب الا يبحث عنها في العالم الخارجي ،
فهي ليست بحقيقة موضوعية والاعتقاد بوجود الطابع المشترك
الاشياء الجميلة هو الذي اوقع الناس في عقائد وهمية ، فقد ادّخروا
يقدرّون الجمال في الاشياء بقدر ما تحويه في الكمية او النسبة
من ذلك الرحيق المجهول الذي ينسكب في الجميل فيجعله اقرب
الى تلك الصورة المثالية من الجمال الكامل التي تنصبها في نفوسنا
ونضعها في رأس القائمة ..

واحسبنا هنا في حاجة لان نعتذر لشيخ المفكرين القدماء
(ارسطو) ولشيخ المحدثين (كانت) ان خالفناهما فقلنا ان
الجمال موقف نفسي قبل كل شيء اي انه عاطفة باطنية او حس
داخلي ، قد تكون وقد لا تكون له في العالم الخارجي تلك
الحقيقة المادية المحدودة التي يمنحها له بعض المفكرين ، ولشد ما
يعجني بهذه المناسبة تعريف كروس للجمال بانه حالة الفكر
في يوم عيد !!

ولسنا نكفر بالجمال ان نحن رددناه مجرد إحساس نفسي ،
ولسنا نخط من قدره ان اعتبرناه صفة ننسبها خطأ للاشياء التي
نشعر إزاءها به ، وجعلنا انعكاس نفوسنا ورأينا انه إنما يبدأ
منا ليعود إلينا وما الشيء الجميل خلال ذلك سوى وسيط
ومحرض ، لا ! ليس ذلك بكفر بالجمال ! ولماذا نظن أن إحساسنا
الخاص - وهذا الامر يرتبط بعقولنا - اقل شأنًا او قيمة أو
صدقًا من صفات الجمال التي نتصورها خارج نفوسنا ؟ إن السعادة

لا وجود لها إلا في نفوسنا ، وكذلك البطولة والحب ما من
مكان لهما غير حنايانا ، فلماذا لا يكون معبد الجمال في
قلوبنا أيضاً ؟

وبعد ، فإذا نحن آمنّا بأن الجمال موقوف داخلي نفسي سهل
علينا ان نفهم لماذا لم يكون للجمال من حدود ؟ ولماذا تتراعى
آفاقه شاردة وراء الامتاع والفائدة ، ووراء اللذة والملاءمة
والاطمئنان ... وسهل علينا ايضاً ان ندرك لماذا نراه في كل
شيء حولنا ، في الرقص حين نمارسه او نتأمله ، وفي الشعر عند
قرضه او تذوقه وفي التمثال إذ نبذعه او نعجب به ، وفي
الموسيقى إذا خلقناها او اهتصرناها ، وفي الدراما عند تمثيلها او
تمثلها ، وفي الصورة إن نحن انشأنها او بضائها للتأمل ... بل
إننا نراه في اصطياد الفكاكة وفي حب الاناقة على السواء ، وفي
تصنيف الورود في الزهرية او في تطريز منديل عادي وتلوخه
في تخير العطر وتلمسه في تأمل الفجر ... إن الجمال ليخرج من
الايدي التي تعجن التمثال او ترسم اللوحة او تقطع الحشب او
تنسج الحرير او تنحت المرمر او تشق الجسم الانساني في عملية
جراحية سواء بسواء . أجل ! إننا لنجد الجمال في الفن الدامي
بكبار الجراحين كما نجده في فن المصورين والموسيقيين
والشعراء ونلمسه في حسابات غاليله ورؤى دانتة كما نلمسه في
تجارب باستور وفي طلوع الشمس على المحيط وفي آلام الشتاء
على الجبال العالية . وهو اشد اسراً في عالم الذرة المنظم وفي

التناسق الذي لا يدركه الوصف في الدماغ الانساني وفي النفس
الانسانية التي تضحي بنفسها للآخرين في صمت وفي سكون ..
ولعلي لم اركب متن الشطط في تصيد الجمال بكل زاوية
من زوايا الحياة فإذا عين المرء هي التي تهب الجمال فهي أيضاً التي
توسع من افقه او تضيق وهي التي تمنحه وتمنعه

والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً
ولأسرع إلى القول إن الحس البديعي عاطفة عامة لدى
الناس يشعر بها كل فرد منا ويصطنع مقاييسها واحكامها ويفتح
ضمن دائرتها دون ان يدري احياناً ... كمثل بطل مولير في
قصة (البورجوا جانيتوم) الذي ذهب يتعلم الأدب بعد كبر
فقسم له استاذة الكلام الى قسمين منظوم ومنثور وعلمه ان
المنثور هو هذا الكلام العادي الذي يتراكم ما بين الألسنة
والشفاه في كل لحظة فصاح صاحبنا دهشاً : « إذن
فانا اكلم النثر منذ ثلاثين سنة ولا ادري !! » .

وكذلك نحن لكل منا نصيبه من الحس البديعي وهو لا
يدري .. وإنما تختلف انصباؤنا بالدرجة فقط فتذوق الجمال
والتمتع بالفن لا يفرض نفسه على الانسان من خارج النفس اي
أنه ليس بحقيقة مطلقة تنتج عنها بالضرورة كمية معينة من
الانفعال او الفعل ولكنه حس داخلي ينبثق فينا ومنا ولنا ..
ويستمد أكثر عناصره من الشخص وميوله وعاداته التي طبع عليها
ثم من تربيته وأفكاره وزمنه ومن عرقه ومجتمعه وثقافته ..

ونستطيع ان نذهب في التعداد بعيداً على ان نذكر دوماً ان
الجمال إنما هو في الاصل بين اضلاعنا نحن ! وهو موجود لدى
جميع الكائنات الانسانية ، لدى اكثرها بدائية وأسمائها مرتبة
على السواء وموجود منذ أقصى العصور قدماً حتى اليوم بل انه
ليوجد قبل وجود القوى العاقلة في الجسم لأنه يظهر في طفولة
الانسانية ويبقى حتى عند فقد العقل أو اضطرابه لأن المعتوهين
والمجانين قادرون على إبداع الأعمال البديعية الفنية . ولعل
عبقريه فان كوخ وكلايست وبيتهوفن ليست اكثر من نوع
خاص راق من الجنون !!

إن تأصل الحس البديعي هذا التأصل يتهى بنا إلى التساؤل
عن حاجتنا إلى تذوق الجمال وإبداعه ؟ فما مقدار تلك الحاجة
وما مداها ؟ إن استحكام الجذور البديعية فينا دليل على أن
قضية الجمال ليست من كاليات الحياة وليست بترف لا يخسر
الانسان شيئاً بزواله ! إنها ليست دبوساً من الماس في صدر
فاهد ولا آنية من الصيني في مغاليق خزانة ولا أردية زائدة في
دولاب غني .. إنها جزء من تكويننا ومن مدانا الكياني .
تصوروا ماذا تكون عليه الحياة الانسانية لو سلبناها قصائد
بندار والمتنبى وسفونيات فاغنو وتشايكوفسكي وتماثيل فيدياس
وميكسل انجلو ؟ تصوروا حال الانسان بدون رقص ولا فكاهة
ولا ستار مطرز أو ثوب انيق ! إني لا أتصور الجحيم الموعود
اكثراً قتماً وحلقة وفزعاً من هذه الصورة القائمة .

لقد شعر الانسان مبكراً بجفاف الحياة وضيقها وبحاجة إلى توسعتها فداوى ذلك بالفن وعود نفسه ابتكار الجمال . إنه عمل على توسعة اللحظة التي يحياها بأن أدخل عليها عاملاً جديداً هو النظرة البديعية ! إن الزمن الآلي الفيزيائي الذي يقاس بالدقائق والثواني الميكانيكية لا يحدد حياتنا وإنما يحددها زمن من نوع آخر هو الزمن النفسي الذي تستطيل فيه الثانية فتصبح ساعة عند الانتظار أو القلق وتدق فيه الساعة فتحول ثانية في لحظات الغبطة والحب .

وإذن فأعمارنا لا تحدد بالأيام والسنين الفلكية ولكن بأيام وسنين أخرى تكرر وتتطاوّل في اعماق كياناتنا النفسية وبامكاننا أن نطيل من تلك الأعمار أو نقصر بقدر ما نبتكر ونبدع أي بقدر نصيبنامن العاطفة البديعية .

ليس هذا فحسب بل إن هذه العاطفة عنصر من عناصر السعادة . إنها ينبوع فروح مستمر . فكما أخذت الموسيقى من حزن وأيقظت القصائد من مشاعر . وأولئك الذين يفرقون مشاعرهم اللاهبة في الابداع مثل نيتشه وغوته وغوغان وهولدرلن هم وحدهم الذين تذوقوا السعادة العليا التي تبدأ وراء حدود الألم !

والعاطفة البديعية ، إلى هذا وذاك ميزة إنسانية . وهي وحدها تشعرنا بتعالى الانسان على المادة وبسموه عن الحاجة الحيوية فهي عن هذا الطريق تهذب وتشذب عواطفه

والانسان كثيراً ما يكون بحاجة لأن ينسى لفترة من
الفتوات أنه حيوان !!

وأخيراً فالحس البديعي ركن من أركان الثقافة . فقمم
المعرفة الانسانية حرم مشاع ، وهيكل لا فرق فيه بين العلم
والفن والدين والعمل لأنها جميعا اشكال من التعبير وصور من
الانتاج الانساني ونظرات مختلفة للحياة من زوايا مختلفة . إن
نظرية البعد الرابع لا ينشأتان فيها من الفن البديعي بقدر ما في
السمفونية الريفية أو تمثال فينوس - ميلو . وإن نظرية
كوبرنيك لا تختلف في قيمتها البنائية البديعية عن هياكل
الاكروبول أو الكوميديا الالهية لدانتى أو لوحة
الجراح لرامبرانت !

وليس بغريب بعد هذا كله أن نلاحظ أن كل الذين كانوا
عظماء كان حسهم البديعي عظيما وكانت عاطفتهم متنوعة زاخرة
ونستطيع أن نقول عن حروب نابليون إنها قصائد عرمة وعن
فلسفة برغسون إنها لوحات غنية الالوان وعن تماثيل أنجلو إنها
موسيقى دون أن نبعد في كثير أو قليل عن مفهوم الثقافة
الأعلى الذي يرى كل المقاييس البديعية تنطبق على نظرية اينشتاين
في النسبية انطباقها على سمفونية شهرزاد لكورساكوف أو
ملحمة هوميروس !

بل أجراً على القول إن الطرق العلمية والقوانين الجامدة
تشوه نظرتنا إلى الحياة وتفسد فطرتنا السليمة في تلقيها وعناقها

وليس يشعروا بنبضة الحياة سوى الحس البديعي إذ قد يبلغ
توتر الحياة أقصاه ويبلغ الشعور بالوجود أقصى درجاته .. في
تلك اللحظات يشعر المرء باتصاله الصميمي بالكون كأنما توقع
الحياة صدى نبضاتها من أعماقه وفي تلك اللحظات تتكسر
إطارات الزمان والمكان وتصبح النفس كلها ينبوع فرح عميق
أقوى من الموت .. وفي تلك اللحظات نستطيع أو نفهم بعمق
معنى كلمة طاعور :

« كلما فكرت في الجمل يارباه خطرت أنت في خاطري
وخلتني افكر فيما وراء الفكر وفي الضباب البعيد .. »

خزائن

منذ أيام ، استوقفتني وأنا أقرأ بعض الصفحات لطاغور ،
شاعر الهند ، قصة . يقول : كنت على زورق في نهر الغانج
وكان مساء جميلاً من امسيات الخريف والشمس قد غربت
أو كادت وسكون السماء مفعم إلى حافته بالجمال والسلام . لم
تكن على مساحات الماء الشاسعة موجة واحدة بل كانت تعكس
كل الظلال المتغيرة لوهج الشمس في الغروب . وهناك أميال

وأميال من رمال الشاطئ ، المهجور ترقد كأنها إحدى الزواحف
القديمة تلمع زعانفها تحت وطأة الألوان . وبينما كان زورقنا
ينزلق في سكون بجانب الشاطئ ، المنحدر الذي احمر من اعشاش
سرب من الطيور إذ وثبت فجأة سمكة كبيرة على سطح الماء
ثم اختفت وقد عرض جسدها المذهب كل ألوان السماء في الماء .
لقد أزعجت فجأة الستار العديد الألوان الذي ترقد وراءه دنيا
ساكنة مملوءة بالفرح . لقد أتت من أعماق مثواها السرى ، في
حركة راقصة جميلة ، وأضافت موسيقاها إلى نشيد اليوم الزائل
لقد أحسست اني حيتت تحية الصداقة من عالم غريب اللغة وأنها
لمست قلبي بومضة الفرح وفجأة صرخ الرجل الذي عند الدنة
بنبرة أسف واضحة : آه ! يالها من سمكة كبيرة ! إنه لم يستطع
أن يرى السمكة إلا من خلال رغبة . فضاع منه حقيقة وجودها
كله . لقد احضرت إلى خياله فقط صورة السمكة على الصحن في
مائدة العشاء !

ليست أذكر إذا كنت قرأت شيئاً بعد هذه الصفحة فكل
ما أذكره أن عيوني جعلت تركض أو تبطئ على السطور
السوداء بينما كان خاطري يركض أو يببطئ في دروب أخرى
في بعض دروب بلادي العتمة التي يشرق أحياناً بالوحد وتبصق
الدم والقتام ! كم رجلاً من أهلي ، ممن يروحون ويحيئون حولي

يستطيع أن يرى في السمكة غير صورتها في صحن العشاء ؟
وكم فيهم من يستطيع أن يرى في رغيف الخبز صورة الحقل
المواربا لسنايل وهتاف السنونو اللماح ؟!

أعرف أن الفقر الذي يجرح اضلاع تلميذي من العري
ويعرق وجهه جاري بصفرة الجوع ، هو الذي يمنع السمكة
أن تكون غير شواء لذيد في الخبز أن يكون غير مخدر للمعدة
الفارغة وهو الذي يلقي بالحياة في حمأة النضال الحيواني للبقاء ..
ويسد الفرح . . ولكني ، سأنسى هذا الفقر - وكيف
انسى ؟

لأقف عند فقر آخر يمشي على الفقر الاول ويزيد في قسوته ،
فقر ليس المعدة مستقره ولا الجيوب ولكن القلب والروح !
بلى ! « ما بالخبز وحده يحيا الانسان » !!

وهناك خبز آخر يعضنا جوعه هو الجمال ، وتذوق الجمال !
أحسبني أرى الآن من خلال الغيوب عيوناً تستدير بالاستفهام
وحواجب تأخذ شكل علامات التعجب ولكني أظل أقول إن
الحاجة إلى الجمال هي أيضاً خبز يومي وجوع الروح - ما اقسى
جوع الروح - هو ايضاً من مشاكل الحياة ومن نضالها للبقاء !
ونحن في الواقع نعيش في حالة من خمود الحس البديعي

غريبة . فحياتنا بلا مرح عدم ولا اعياد صاخبة ومشغل اليوم
تجرف الرجل مع الصبح الى الكدح والمرأة الى المطبخ والغسيل
فما يتبقى لها من لحظة لتأمل المغييب أو اغنية الساقية . وقصورنا
التي ننشئها كالقوالب والعلب ما عليها ظل من زخرف أو مسحة
من فن وبيوتنا في داخلها مشعة بأبشع التلذيق تتجاور في أبهى
ردهاتها : السجادة الايرانية والطبق الصيني والمقعد الاوروبي
وتتنافر فيها الالوان من كل زاوية . حتى أغانيها الشعبية سخيفة
وبعضها بذيء أنا في كئيب ! ولقد لفظت الأسطورة أنفاسها
وطغت الآلة والسرعة وبدأت الحضارة الصناعية تدخلنا في
قوالب التشابه فتحن عن قريب أرقام .. أو انقاف في مفرخة
اصطناعية أو امس يشمر كل منا أنه في دوامة العمل اليومي ،
أشبه بالآلة التافهة ؟ وأن دوره في الحياة ليس اكثر من دور
تلك الدابة المعصبة العيين المربوطة إلى الناعورة .. في دوران
لا نهاية له ! ونطق شفة على شفة من الملل والحسرة : ونحس
ان حياتنا ينقصها شيء ... شيء من كيانها العميق ، ونظـل
نتساءل ما هو ؟ إنها في جوع إلى الجمال !

والحس الجمالي قدور مشترك بين البشر ، يخفق في رجل
الطفل وهو يرقص ، خفته في رقصة الرجل البدائي ، واصباغ
وجهه ، ويتجلى في ثوب المعدم تجليه في قصر الغني وهو يختلف
في المنحني وفي درجة الارهاق . ولا ينمو عفويًا ، ولكنه
كالنبته الوحشية تحتاج إلى التشذيب والصقل والتطعيم والرعاية
الدائمة لتسوغ ثمارها المرة ذات الطعم الغريب .

وقلما عني آباؤنا او الذين تربوا منا على الطرق القديمة إلا بالتربية العقلية : باتقان الحساب والجبر ، وتعلم قوانين الفيزياء والفلك ووظائف الفرائض وتشريع الجسم ... اما التربية الجمالية وبصورة اعم التربية العاطفية ، فلم يكن لها من موازينهم من وزن . او لنقل انهم كانوا يخافونها ويرون ان العاطفة عامة امر يجب الحذر منه والاقبال من شأنه . وهل يليق بالانسان الكامل المتزن ، ان تعمّر قلبه العواطف الجاحجة والنزعات الراقصة ؟ هل يليق به ان يلهو وكل الحياة جده ؟ وان يبتذل وقاره بسماع الموسيقى او الاستمتاع بالنكتة ؟ الحق ان معظمنا نشأوا اطفالاً - شيوخاً ! إلا ان علماء النفس المعاصرين تذهبوا الى العواطف وخطرها . وملأوا الدنيا ضجيجاً وهم يثبتون ان ضعف الحياة العاطفية او اضطرابها يؤدي الى ضعف الشخصية واضطرابها .

وان هزة في المشاعر أفضل في تزويق الحياة وتوجيهها من الف مجلد من الحكمة والف برهان من المنطق .
وكثيراً ما رأينا الحياة عند بعض العباقرة تستحيل حساسية مرهفة فقط ، وشعوراً لاهباً حاراً يزدرى بالعقل ويتركه وحده يبكي عزلته ومسكنته ! وبالعكس ، فان العصور التي خنقت فيها العاطفة وصلى الناس عليها صلاة الموت ، كالعصور الوسطى ، الاوروبية ، وكعصر إرسطو ، كانت عصور ظلمة قائمة واضمحلال فكري ، حيوي غريب .

ولعله من السهل الاتفاق على قيمة العواطف في الحياة ،
وعلى قيمة العواطف البديعية بالذات . ولكن من الصعب
الاتفاق على نوع العناية التي يجب أن تصرف لها ، وعلى طريقة
تلك العناية . ويعترض الكثيرون قائلين إن من الناس من تكرهه
ضرورات الحياة على أعمال تافهة حقيرة ، لاطيف للجمال فيها .
ولا بارق من روعة : كالعامل في القطار ، أو مصنع الزبوت .
أو أعمال المطبخ والحقل . وإن ما يصفه الشعراء من جمال هذه
الأعمال ليس إلا نزوة من الخيال العابر . والواقع أنها متوعة
بالبشاعة والتفاهة ، تلاحقها أطياف الجوع والمرض ومطالب الحياة
كما يلاحق العقاب الجريمة . . والعواطف البديعية لا تندو إلا في
جو الهدوء والنعمة ، واللافتعية ثم إن تربية العواطف أمر طويل
يحتاج إلى زمن طويل ، ومران أطول . وليس كمثله تعلم الحساب
وحفظ النظريات العلمية . وأخيراً فإن المواهب الفنية المبدعة قليلة
في الناس وكثير من الجهود في تربية هذه العواطف تذهب مع
الريح ، كأطياف الرؤى . .

وإذا كان في هذه الملاحظات بعض الحق إلا إنها تخون
هذا الحق في شططها . فالجمال ينبع من القلب ومن أعماق النفس .
إننا نجد في تفتح الزهرة أو تنسيق الغرفة . وليس من الضروري
أن يطرد العمل القاسي الحس البديعي من النفس ، أو تسدل
غرائز الجوع والعطش الحجاب على التذوق الفني عند
العامل المنهك .

إني أعترف أن عبادة الجمال صورة راقية من صور الحياة النفسية تشترك فيها ملكات النفس العقلية والعاطفية معا وأن تعهدا بالسقيا والرعاية عمل صعب ، ولكن هل تبرز صعوبتها تركها وإهمالها ؟

أما انه ليس للانسان الوقت الكافي للتمرس بشؤون الفن وتذوق معايير الجمال أمام إلحاح الحياة فهذا أثر من آثار هذا الجو الآلي الخانق ، الكاذب .. ولكننا في الواقع كثيراً ما نفر من هذا الجو إلى التأمل والخيال وفي اللحظات الحلوة التي يخلو بها الانسان إلى نفسه ، أين ترى تذهب نظراته الساهمة الشاردة ؟ وفي أي الآفاق تخلق عرائس اجلامه .. وهناك غير أفق الجمال ؟ ثم إن الانسان حيوان فنان ، عابد للجمال ، مبدع للجمال بقدر ما هو حيوان عاقل أو كما يقولون أحياناً حيوان ضاحك . ومن هذه المسلمات الأولية نبدأ فنجد :

١) أن تربية الفاعلية البديعية في الانسان يمكن ان تنحل في عناصرها الأولى إلى تربية حواسه الممتازة :

تربية العين التي ترى وتنقل الانطباع والاذن التي تسمع وتميز للحن ، واليد التي تعمل وتبدع فالتربية البديعية هي إذن ثقافة العين واليد والاذن .

٢) لما كان الاحساس البديعي عاطفة ، فإنه يخضع لما يسمى أحياناً بالتدريب العاطفي وذلك بأن نحاول غرس العادات البديعية فينا كما نغرس النبتة ، ولنعتمد سماع الموسيقى وأناقة الملبس

وتصنيف الزهر في زاوية الصالة ، لتعتمد الكلمة الحلوة والمرح
الجميل وتذوق القصيدة، فهذا الاطار الذي نزوق به الحياة قد
يكون أجمل من الحياة نفسها .

٣) لنلاحظ الخطر الكامن في أدوار الاضمحلال العاطفي
والفراغ النفسي فالحساسية البديعية - دفقة من الطاقة تريد ان تتحقق
وفعالية تميل إلى العمل ، ككل فاعلية أخرى . هي طاقة نفسية
جاهزة فلنحاول أن نصعد بها لا أن نهبط . إن الحياة ، هذا
التيار الوجودي الحي ، يندفع دون توقف وفي حياة أي
انسان ، لحظات كثيرة من العطالة ، ومن الفراغ النفسي ، له
أن يملأه بالثرثرة في لمقهي والاستقبالات ، وبإدمان العادات التافهة وله
أيضا أن يفعمه بالشعر وتذوق الفن وبممارسة الرقص
والترف العقلي .

٤) لنعمل على توسيع آفاقنا العقلية والثقافية بالاطلاع
والنقد والتحليل فمن هذه الآفاق الرفافة ، الملوثة أو الجهمية
على السواء ، تتغذى العاطفة البديعية وفيها نجد لفتات الابداع
ومجالات الجمال أعمق وأصدق اتصالاً بصميم الحياة وكيان الوجود .

٥) لنعش في جو فني ، في جو جميل ، ونحن الذين نخلق من
حوراء هذا الجو ، فالحس البديعي يحنق في الاجواء القائمة الجافة ، كإله
نبتشه ، يحنق في رحمته . فلذة الجمال هي في استمرار فعل الخلق فيه بل
إن هذه اللذة تزداد في سلسلة هندسية متزايدة - إن سمح لنا

الرياضيون باستعمال الاصطلاح - كلما ازداد تأثرنا به . وتذوق الجمال
مران بقدر ما السعادة إرادة .

إن الحياة نفسها يمكن أن تصبح قطعة فنية جميلة لمن يعرف
أن يجعلها كذلك . لنُدع الفنون الكلاسيكية ، الرسم والاحت
والشعر .. الخ ، ولنأخذ الحياة كما هي ، أليس في الامكان
جعلها أحسن وأروح بما هي عليه ؟

إننا من أجل الفن وتذوق الجمال نقوم بالسياحات الواسعة
ونؤم الجبار والبعال ونقيم المعارض ونحضر الحفلات .. أليس
في المستطاع خلق الجمال فيما حولنا دون هـ ذا الجهد العظيم ؟
أليس في وسع كل منا أن يجعل الحياة فناً يحتضن كل الفنون ؟
في وسع كل منا ذلك إن جمـال الحركة وجمال العمل
وجمال الكلام تلمع كأن نجوم في الحياة العادية السوداء ، وإن
تجنب الابتذال والثورة على الاستمرار الرقيب ، وخلق جمل
جديدة وإبداع المفجاءآت في السهرة وتنوع الملابس وتنسيق
البيت كل ذلك يفعل في النفوس ما تفعله العصا السحرية ، في
الارض العقيم .

ومن خلال النظرة الفنية والتحقيق الفني ، أي من خلال
الحس البديعي هذا الخبز الآخر تنبدي الحياة زاهية اللون كما
تبدت غرفة النبي طوبيا عند زيارة الملك له .. « كان الضيف الجميل
العجيب المغمر بالأوان قوس قزح يتبرج في الغرفة المتواضعة
من غير أن يبدل في نظامها شيئاً . ويرى الراؤون من خلال

نوره المتكسر قطع الاثاث البيتي على الحال المعهود من التواضع
الهاديء والفقر المحتشم ولكنها سمت وازينت بأشعثه المذهبة
الزرقاء .

إِنَّ مَلِكَ النَّبِيِّ طُوبِيَا وَاقِفٌ بِأَبْوَابِنَا جَمِيعاً فَلْنَعْرِفْ فَقْطَ
كَيْفَ نَقُولُ لَهُ تَفْضُلُ !

0/2

221

(*)

بلد العجيان

يا صديقي !

بدأت بقراءة كلمتك الحلوة ، مرة ومرتين وثلاثاً وخمسا ،
و كنت كلما بدأت لا اجاوز الاسطر الاولى ، وتنقلني اغفاء
صاحرا الى ليلة لنا هناك ، عبر البحر ، ليلة وحيدة قطعنا ظلامها
في مسرح « ماريني » ثم افترقنا . اني لم انسها . او تذكرها
انت ؟ او تذكر الراقصة التي كانت ترقص لنا « كارمن » ؟ لا

(*) كتبت للصديق الدكتور أديب الداوودي .

ادري اي خيال شيطان حول مقالك في عيني مسرحاً مضاء
وأنتى بتلك الراقصة بانسياب ذراعها وقصائد ساقها لترقص
امامي على الاسطر وتقفز وهي تستدير من اعلى الكلمة الاولى
الى رأس الكلمة الجارة ثم تنحدر خفيفة الخطو ، كالحلم الطري ،
الى السطر التالي والذي يليه ... وتر عيني على الحروف السوداء
فلا ترى لها معنى .. حتى يعنف البوق ويصاعد اللحن الموسيقي
قوياً من نفسي فيتلاشى الوهم واعود فابداً بقراءة مقالك من
أوله ، لعلي اعيه !

اعجبني منك ايها الصديق ان تنكأ الجرح الذي افر منه ،
واعجبني تلك الصورة الفنية التي اعطيتها للحياة الرتيبة التي
نجتوها في هذا البلد الطيب .. اي فقر فاضح في ان تأخذ يوماً
واحداً من جلسك في المقهى فتكرره سنوات فاذا هو كل
حياته دون نقص؟ واي قرف في ان تعير هذه الحياة نفسها لاي
منا فاذا هي حياته هو ايضاً كلها دون نقص؟ لقد قرأ الكثيرون
- ومنهم انا - حياتهم كلها في الذي كتبت . ولكن الا ترى
معني ان مشكلة حياتنا ليس انها رتيبة فقط ، ولا انها فقيرة
فحسب ولكن انها ايضاً حياة بلا مرح ، وحياة بلا حرية ،
واحياناً حياة بلا حس . قل لي هل تحتفل هنا بعيد ؟ اي عيد ...
ولو بعيد ميلادك ؟ وهل تجد يوماً حولك من يفهمك ويتجاوب
مع اللهب الذي يسيل في عروقك ؟ وهل سعدت يوماً بان
تمشي او تلبس او تأكل او ترقص او تغني كما تشتهي دون ان

تلتفت اليك آلاف الاعين بالعجب ، وتلحقك ملايين الألسن
بالنقد ؟

وتسألني بعد عما إذا كانت الحاجة الى الهرب هي من
دمشقنا اعنف منها في روما وباريس وموسكو ، لست اشك
في ذلك ولكنني اتساءل فقط : ألسنا نجد ، حتى في تلك
الاعواسط ارواحاً تتعذب لانها لم تجد الدفء ؟ وقلوباً معروقة
من الجوع ؟ وابصاراً مشرقة الى اعلى ؟ ... والا فمن بيروت
وتزفايغ وبيروانديلو ؟ وما خطب واغنز وبيتهوفن وسيلبيوس
وما اليكاسو ومانيه وغوغان ؟ وفيهم تمرد نيتشه وسارتر ؟
لعل الفرق بيننا اننا نهرب من الفقر والمثربة ويهربون
من الحصب ، ونهرب لنلحق ركب الحضارة ، ويهربون
ليكونوا الرواد الاول ، ونهرب لاننا غرباء يطاردنا الانكار
ويهربون لكثرة ما يبدعون !
اتعرفها قصة بلد العميان ؟

شئت العاصفة مرة ركباً من المسافرين وقذفت الصدف
باحدهم الى جبل تلتفت قمته بالثلج والضباب . ودب المساء ولم يجد
المشرد مأوى في العتمة فتدثر بثيابه ونام على الثلوج ولشد ما
كانت دهشته كبيرة حين افاق في الصباح فوجد انه تدرج مع فراشه
الثلجي المنهار حتى اذبال السفح المقابل ، وان هذا السفح ينتصب
قائماً كالجدار ، شاهقاً شاهقاً حتى كأنه العضادة التي تمسك السماء
ان تهوي على الارض ، ولا شعب ولا متسلق . فلا مفر من

الضرب في فجاج تلك الارض ... وقضى بياض يومه بالمسيح حتى
 ناس قرية وصلها وقد جنه الليل فادهشه الا يرى فيها بصيصاً من
 نور ، وبهت إذ دخلها ان يجد اهلها عمياً ، كلهم عمى ! عرفوا
 مقدمه باصابعهم وتقرروه باللمس حتى اطمانوا اليه ، ولم
 يكن الزائر الضال بحاجة لكبير زمن ليلاحظ ان افكارهم غير
 فكره ومفاهيمهم غير مفاهيمه . لا اسم للـون في لغتهم ولا
 وجود للنور في عرفهم ، ولا لبل ولا نهار ولا افق ولا سماء ،
 ولا شفق ولا جمال ولا غواية اعين ! ... الكون ينتهي حيث
 تمتد ايديهم والله عندهم حس وحس فحسب ، وجنائهم عسل على
 الشفاه ونعيمهم غواية جسد ! وهمس في نفسه : اني ارى فيجب
 ان يرى هؤلاء الحقيقة مثلي ، ويجب ان تنتهي الضلالة السوداء
 في هذا البلد ! ولكنه حين تحدث لاحدهم عن العيون والنور
 ضحك منه طويلاً وانصرف . وحين تحدث للثاني عن زرقة السماء
 وبياض الثلج وحمرة الورد ازور عنه ولم يفهمه ، وحين استوقف
 الثالث يريد ان يحول الاءله من حواسه الى قلبه غضب وانتهره
 بل غدا للناس يشكو الكائن الغريب الذي يقول مالا يعقل ،
 وتجمع الجمهور حوله يسفهونه ويردونه عن عمايته ! انه ليس من
 المعقول ان يكون افهم من تلك السلالات السابقة من الاجداد
 التي اقرت ميتافيزيك البلد ونظمت مفاهيم الكون وحددت
 التقاليد . وهؤلاء الذين حوله ؟ اهو اقوى منهم لمساً او
 اوهف حساً ؟ فليقدم لهم إذن قطعة من النور او قنطاراً من

السماء او امتاراً من الافق أو فليضع في ايديهم او عند انوفهم
شيئاً من إله قلبه !! ولكنه لم يكن يستطيع ان يجيب باكثر
من ان له عينين وانه يرى !!

لم تمض ايام حتى كان الله في عليائه يشهد القرية جميعاً
خارجة وهي تلعن وتصخب حول « ذي العينين الذي يرى »
لتوصله الى التل القريب بعد ان ألقت على كنفه خشبة الصلب !
يا صديتي !

إنك غريب ومتهم . إنك ترى . وهذا عيبك هنا كما هو
عيبى ، وعن قريب سيلقون على كتفك خشبتك كما يلقون خشبتي
ليصلبونا على جملعتهم بين اللصوص ، وعلى الرؤوس تيجان
الشوك ! فاذا وجدت اخاً حبيباً يؤثر السلامة فانصحه ان عصفت
به الثورة ألا يصانعها ، وإذا غنج له الافق النعاري الا يغو ،
وإذا وقف المركب يفتظره الا يركب إذ انه سيفتح هناك على
الضفة الاخرى عينه فلا يستطيع حين يرجع ان يغلقها ويستعضه
بقية عمره السير والقيود وحممة الغوغاء وجحيم الاحساس .
انها تقاحة جدنا آدم تلك التي عضضناها انت وانا فاخسرتنا
فردوس الطمأنينة والسعادة السلبية واعطنا مائة بل ذلك الجحيم
الابدي و و إني لا اكاد اتصور جحيم ربي ناراً ولهباً ولكن
قلق روح ولا اكاد اعتقد انه مشواة جسد ولكن حياة بلا
مرح !

إن الصيحة التي ختم بها غوته حياته « النور ! اكثر فاكثره من

النور » ستظل لهاثا لا يرتوي على ثغرك وثغري وعلى ثغور
كثيرة اخرى عبت مثلنا من الكوثر الحرام وما تزال تمفو
لجرعة من مثله . نعم ستظل لهاثا وهربا واسطورة حتى
ينتصر النور !

يا صديقي :

دعوتك لله رب ولكنها كانت دعوة يأس عابر واعترف
لك اني قد لا اقرها اليوم وقد افضل عليها دم الشهادة ! ان
من خصائص الفكر الحي ان ييأس تارة وان يؤمن اخرى
لتزداد انطلاقة عنفا وبطواته سمواً . ان الشيء الوحيد الثابت
في نفسي كما في نفسك هو الثورة . وسنلتقي يوما ما على طريق
واحد مضمخين بالدماء . ولا فرق بين ان نكون منتصرين او
مغلوبين ، قائدين او متودين للموت ! شيء واحد فقط يحفظ لي
الامل ويوحى بالغبطة هو ايماني بان الله الذي يذيبني حرقه
لحياة اخصب وانبل واكثر بطرلة ، هذا الله لا يحرق شفتي
وحدما ولن ادعه - وحياتك - يحرق شفتي وحدما ...
لن ادعه !

مع انحراف

أتود الهرب ؟

وراء هذه السطور نفس آفة وروح تحاول الهرب مثلك ،
 مثل أخيك وصديقك ، مثل آلاف غيرك وغير أخيك وصديقك
 وقد وجدت في عالم الاضطورة الضبابي حضاناً دافئاً تستمرغ
 على ضلالاته وتوضع ثدييه الغني المتعرد ، ولكن الى لخطات
 عابرات .. فلعلها لن تستقر عند ذلك الحزن ولا عند ذياك

الشيدي . فالهرب هو ضالتها لا المأوى ، ولذة الفرار هي التي
تغريها لا الدفء الوقح الذليل . وحين بدأت لعنة القلق تسوقها
وتطاردها ، أوكد لك ، أنها لم تسألها الى أين ؟ ولا أيا
تلقني العصا ؟

فان كنت مررت بهذه التجربة فاشرب معي من هذه
الواحة السرابية الغاوية التي شربت منها ذات يوم ، من الاسطورة .
عالم الاسطورة ، ذلك العالم المخرج نحن شدناه من أفواف
الزهر ورقة الفجر ، من ضلال المني ونثير الرؤى ، من اجنحة
النسور واغراء الانهايات . وقديماً هدهدت به شهر زاد ثائرة
الملك شهر يار لا ليلة ولا ليلتين ولكن الف ليلة وليلة فشغلته
عن ملكه وعن ثأره لدى النساء وعن عنقها ان يامر بقطعه حين
كان يدر كها الصباح وتسكت عن الكلام المباح .

إن الانفصال عن الواقع وتناسيه بل وتخطيه حاجة عنيفة
ملحة يشعر بها كل انسان لأنه انسان . ولو رجع كل منا الى
نفسه أليس يذكر أنه جلس مرة او مرات لوحده فنظر لكن
في احلامه ومنه ، وابتسم لكن لبنات وهمه ؟

لنمارس هذا اللعب معاً ، فالوهم للعقل كالعيد للحياة : تمرد
على النظام الرتيب الذي لا يقبل نشوزاً وخروج على المنطق
القاسي الذي يقول بإمكان وغير الممكن ، وكسر للتقليد
الدائم الذي تجتثه النفس اجتراراً وتختق العادة جماله شيئاً فشيئاً .
وإني لأذهب الى أبعد من هذا فأزعم ان الحاجة للوهم والاسطورة

هي علامة الانسانية . فالانسان هو بين الحيوان والكائنات
 جميعا ، الوحيد الذي نجد عنده الوهم والذي يخلق الاساطير .
 وتراث الانسانية من الوهم والخرافة والقصص الخيالي اكبر
 من تراثها من الحقائق ولعله أحب اليها أيضا .. ان قيود
 الاحساس على ما يظهر وحدود النظر واللمس والمنطق والحس
 قدمي الروح بضيقها وتحتق وثبة الانعتاق من الجسد وسجن
 المادة فيأمن الانسان الى هيمت الخرافة ووحى الرؤى
 طائعا مختاراً .

من رأى منكم الى النرجسة منجنية على ضفة الغدير تنمرى
 على مائه ؟ كم تتوشى الحياة لو رأينا فيها لازهرة من كأس
 وتوبج وغبار طلوع ولكن ما تراه فيها ، اسطورة الاغريق
 من انها هي نركيسوس الفتى الذي دله الآلهة بجباله وتام
 العذارى بنضارته ثم نظر مرة الى صورته في الغدير فبهرت
 لآعين الوطف والثغر كالاقحوانة المتفتحة فعشق نفسه وتصباها
 خياله وحاول القبلة فغطس وجهه في الماء مرة بعد مرة وبقي
 في مكانه أياما وأياما يذرف الدمع حتى ذوى عوده ولما جاءت
 عرائس البحر لدفنه لم يجدنه واكنهن وجدن زهرة من ازهار
 النرجس منجنية على ضفة الغدير تنظر في خيالها وتذرف
 الندى قطرة قطرة !.

ولحة البرق ؟ رأيتم اليها ؟ لاتصدقوا انها شرارة كهربائية بين
 سحابتين ، موجبة وسالبة ، إنها سياط ملائكة إلا له يزدان

تلهب ظهور شياطين الظلام ! هكذا تقول الاسطورة الفارسية .
والموت ؟ من ذا الذي قل إنه لا يمكن قهره ؟ إن قوة الحب
تغلبه . هذا أورفيوس صاحب القيثارة المرنّة اختطف (بلوتو) منه
(في الاسطورة اليونانية) حبيبته يوريديز لتسليمه في مملكة
الظلام فاقبل أورفيوس يبكي في كل فج وبعد ان كانت
اوتاره نبع الفرح غدت آهات حمراء كالدم الفوار .. حتى
الآلهة بكّت له فدلته على طريق الآخرة عبر انهر الآلام
والنسيان والتطهير .. لقد عزف لنوتي تلك الانهر فزلزل
عواطفه وعزف للماء فهدا وتطامن بعد ثورة وموج ، وعزف
لبلوتو الجبار فاعاد له يوريديز .. لكن أورفيوس أخلف
شرطه مع الآله . اشترط عليه الآله الا ينظر إلى فاتنته الا بعد
الخروج من مملكة الظلام ولكنه أوجس خفية حين لم يسمع
وقع اقدامها ورائه وهما في العدوّة الاخيرة من الطريق
فالتفت . ولكن ليرى حبيبته تستدير عائدة مودعة !
لقد عاد أورفيوس إلى الدنيا يبكي وما تزال الاشجار
تردد كلما اهتزت والمياه كلما خرت الاسم الذي كان يردده على
قيثارته : يوريديز ! يوريديز !

نبأ للعقل

تلذنا الاسطورة ، لاشك ، وتغرينا ، وتدب فينا دبيب
النشوة في العروق الظامّة . فما مبعث تلك اللذة ؟ وأي خمرة
تسكبها مع الوهم ؟ وإذا اتخذنا اللذة دليلا على وجود الحاجة

الطبيعية فما سبب هذه الحاجة إلى الوهم والاسطورة لدى البشر؟
 قد نخطئ، ونضل الدراسة حين ندرس بتفكيرنا الحالي أصول
 الاسطورة . فعصرنا المادي هذا لن يعطينا سبباً معقولاً لتلك
 الرؤى والتراكيب اللاعقلية . ولعلنا نكون اكثر توفيقاً لو
 تذكرنا ان الاسطورة استجابة لحاجة طبيعية شعرت بها كل
 الكائنات الانسانية على السواء وانها ظاهرة عامة وجدت لدى
 جميع البشر لا ينفرد بها شعب دون آخر وانها اخيراً مختلطة
 دوماً مع الحياة لا تنفصل عنها . وعلى هذا فهي مشكلة نفسية
 في الاصل وعلينا ان نرجع الزمن القهقري عبر القرون الى الامم
 الاولى وإلى الشعوب البدائية خاصة . بل نرجع الى ابعد من
 هذا ، إلى الوقت الذي بدأ فيه الانسان انفصاله عن الحيوانية ،
 أي الوقت الذي بدأت فيه القوة العاقلة تتكون لديه ، نرجع
 لنرى الى الاصل النفسي لهذه الرؤى والاحلام الضالة ونسأل ثمّة
 عن السبب في ظهور الاسطورة عند الانسان بذلك العمق
 وذلك الشمول ؟ (١) .

(١) وجدت مدارس كثيرة لتفسير الاسطورة : فالمدرسة الانجيلية
 ترى مع الاب (بانيه) انها الشكل المشوه للدين والمدرسة التاريخية ترى
 فيها ذكريات الحوادث الاولى والافلاطونيون قديماً (ويساندنهم حديثاً كروزو)
 يرون فيها رموزاً وافكاراً ، كما ان ماكس مولر وكوهن وجماعة اللغويين
 يفسرونها بجوهر اللغة . وهناك المدرسة الانتروبولوجية والايقونية والنفسية
 والدينية .. وخطؤها جميعاً انها تقف عند وجهة نظر واحدة لا ترى غيرها او
 تعالج ظاهر المشكلة من ظاهرها دون ربطها بالحياة .

يخيل الى أن العقل ، هذا الذي يحمده الكثيرون ، والذي ميزت به الطبيعة الانسان وأيدت به حريته (مقابل الغريزة التي اعطتها للحيوان وأوقفته عند آلياتها وسرمنتها) يخيل الى ان هذا العقل كان السبب في وجود الوهم الخرافي والأخيلة الاسطورية لدى الانسان فاعقل حين حل بالكائن الانساني أتى اليه في الوقت نفسه بالمشاكل الكبرى ، بالمأساة . نصب عند ناظره ، عيناً لعين : مشكلة الموت الحتمي الذي لا يمكن تفاديه ومشكلة المرض الذي قد يقع كل لحظة ، وعلمه الممكن وغير الممكن وواحى له بالقدر المحتوم في الوجود وحر كة للسؤال عن مظاهر الطبيعة ما معناها ؟ وما بدوها وما منتهاها ؟ واين لقيهاها ؟ وبمته على الشعور بانانيته وبشخصيته وعلى لممة فرديته ونشلها من تشابه المجموع الذي هو منه .

إن النبات يتفتح ويزدهر ويذبل في هــدوء وطمانينة لا تمكرها عاصفة ، والحيوان لا تهمة إلا اللحظة العابرة من جوع وعطش ، وحتى الانسان نفسه ، بعد نزهة او جولة أو قطعة موسيقى يهدأ وينسى . ولكنه حين يفكر تبدأ ظلمة نفسه بالتفجر وحين تهترأ الآلة العقلية في دماغه يبدأ شقاؤه وتبدأ مأساته . ولعل المتنبئ وقع في هذه التجربة حين قال :

« ذو العتل يشتمى في النعيم بمقله ! »

إن هــذه المشاكل لا تعرض للحيوان ولكنها مأساة الانسان وحده ، هــذا الحيوان العقل - كما يقولون - وعلى

هذا كان لابد للحياة من ان توجد توازناً في نفس هذا الكائن
 ولا بد لها من الثورة على هذا العقل الهدام الذي يهدد الفرد
 والمجتمع وذلك بخلق وقائع مزورة وحوادث زائفة واوهام
 لاعقلية تقابل قسوة الواقع ومرارة الحقيقة وهذه الاوهام
 الزائفة هي التي صاغت الانسان أساطير وخرافات تنصرف
 لعجزها وتعمس رغباتها الاشعورية . وهكذا ما كاد الانسان
 يصبح إنساناً أي حيواناً يتحلى بالعقل (أو كائناً ذا مأساة)
 حتى غزته الاوهام « واضحى الكائن العاقل في جوهره كائناً
 متوهماً بطبيعته » وإلا أفليس من الغريب — كما يقول برغسون —
 ان يكون الانسان هو الكائن الوحيد الذي وهب العقل
 والوحيد الذي يربط وجوده في الوقت نفسه بأشياء غير معتولة ؟
 وعلى هذا فوجود العقل بسيطرته وبقسوته هو الذي جعل
 التوهم والاختلة المركبة والابداع الاسطوري تنبع من فعالية
 أصيلة في النفس الانسانية او من وظيفة من الوظائف النفسية
 — الحيوية في الانسان . نستطيع ان نسميها (بالوظيفة الخرافية)
 ونستطيع لحد كبير ان نعتبر هذه الوظيفة رد فعل تقاوم به
 الطبيعة الاخطار التي تنشأ عن تحكيم العقل وحده في الحياة
 وكفة التوازن الاخرى التي تلجم العقل الجوارح و « تمسكه عن
 عن الايقال بعيداً في النتائج التي يستخلصها من التجربة الحسية »
 ومن الواقع .

ألا تَبَّ للعقل ولقسوة العقل وألف تب !

كأس كوكبيل

وإذا كنا نسمي الانسان بالحيوان العاقل لان ما ندعوه
بالعقل هو الذي يسبغ عليه صفة « الانسانية » فانا نستطيع
بالطريقة المنطقية نفسها دون كبير خطأ ان نسمي الانسان
بالحيوان الواهم ايضاً . أليس التوهم خاصة انسانية ؟

ولن اعرض بعد لكل وهم تفجرت عنه الاخيلة ، ولكل
رؤيا انحسر عنها الفكر فثمة بين التوهم « الحام » والاسطورة
من الفرق ما بين رمل الجبل وصخره ، وبين القصر المشيد
الممرد ، وثمة مراحل كثيرة يجتازها الوهم قبل ان يصبح
« اسطورة » اي قبل ان يصبح رؤى منظمة منسقة ينتظمها
الخلق البديعي كما انتظم السلك حبات العقد ، رؤى ارتفعت
عن ان تكون اضغاث احلام لتصبح عالماً كاملاً مزوقاً ، قد
لا يكون منطقياً او لعل خاصته الاساسية انه يتمرد على المنطق
والواقع ولا يستهدف سوى الاعجاب والراحة واللذة الفنية .
إن الاسطورة من الوهم بمثابة الزهرة من النبتة ، اي هي
نهاية تطوره واجمل ما فيه ، ولهذا كان تركيبها معقداً مربكاً
يتأبى على التحليل والتبسيط . إنك تدخل منها في غابة سحرية
تبدل ، دون توقف ، معالمها ومواقع دوحها ومنطلق شعابها
ومهوى اوراقها وزهرها وطيورها وصرير الصراير !!
إني كلما قرأت اسطورة شعرت كاني اعب النشوة من كأس

« كوكتيل » ... كوكتيل من إشارات الاستفهام ومن
النوازع الكبيطة اللاواعية ومن المثل العليا والذكريات
السيقية القدم ، سجلتها على نفسها وبفسها الامم المختلفة . تستوي
في ذلك شعوب الالبس واليونان او زنوج الزولو وتستوي
الشعوب الاولى في التاريخ والاخيرة . وإذا كانت دراسة
الميتولوجيا طريقة حقاً فمن هذه النافذة التي يطل منها الباحث ،
على نفسية كل شعب عارية صادقة صريحة فيعرف مدى نظراته
الى الحياة والكون وعند أي برزخ يقف مثله الاعلى وفي أي
درب من دروب الفاعلية تتدفق مناه .

قد تلمتي الاسطورة هنا بالدين في صورته البدائية بل كثيراً
ما خيل إلي وانا اجتلي ملامح الاولى اني اتلمس ملامح الثاني
وامس عن قرب جوانبه . فالدين كذلك تطلع رفيع الى المثل
الاعلى وسمو لما وراء الذات وموقف من الحياة ومن الكون
ويزيد في قوة التشابه في الجوهر ووضوحه ذلك الترافق
التاريخي الذي كان ابطال الاساطير فيه هم في الوقت أنفسهم آلهة
الاديان فاشتبك الحس الديني بالوظيفة الخرافية ، وبالرغم من
أن كثيراً من الباحثين يرفعون العاطفة الدينية - او ينزلون بها ،
لا ادري - إلى مرتبة الغريزة غير انهم لا ينسون ان يربطوها
بالاسطورة او يربطوا الاسطورة بها . لكني ارى ان الدين
وان كان يشغل جانباً كبيراً من فعالية التوهم عند الانسان
ويعلاً فراغ الوظيفة الخرافية عنده الا انه لا يستطيع ان يفسر

وحده كل ما انتجه الانسان من اساطير ، فثمة منها ما هو على هامش الحس الديني كالا هدا ب له ومنها ما ابدعه الانسان لذاته ووضع فيه خلاصة موقفه من الوجود وكيفية تصويره للبطولة وتغلبه على المأساة الانسانية ومدى تطلعه لخلق الانسان المتسامي على ذاته بالبطولة .

ولا شك ان الانسان في غالب الاحيان كان يعبد ما ابدع من وهم ، تماما كما فعل بغاليون المثال في الاسطورة اليونانية المعروفة حين اعمل ازميله الخنون مرة في قطعة من الرخام ليصنع تمثالا لفينوس ربة الحب وروعة الجمال فلما فرغ من لفنة الحدقتين وتكوير الثديين وتلميس الردفين وتنعيم العقبين والقامة الممردة الغاوية ، وقف خاشعا يصلي امام التمثال السوي قائلا : تسلامي ايها المعبودة !

لكن الانسان مثل بغاليون لم يعبد كل ما ابدع ولكن اكمل ما ابدع وعنده كما كان عند بغاليون تماثيل واصنام عديدة واساطير كثيرة ليست كلها للعبادة وقد اودع فيها صبوات فكره ومنى نفسه ونزعات وجدانه العميق ...

وسانقل بقارئ في غابة الاساطير السحرية لتتذوق ثمارها العسية ونص عن شفافها رحيقها الشره . ومن الضروري حين نتذوق الاسطورة ان نوقف عاطفتنا الفنية وحسنا البديعي فقط ونلقي بالمنطق في وجه ارسطو وبالعقل في سلة المهملات . ذلك ان الاسطورة ترقص امام عبوس الفكر المنطقي الموت رقصة

السكة اخرجت من الماء وانما تبدو ووعتها بقدر ما تنتسكب
نهج العقل وغد بلسانها له .

ولا يدعين احد منا انه لا يتذوق الاسطورة او لا يتصباها
الوهم . اذا ادعى لك فليذكركم مرة في دار السينما شارك بطله
الفلم رعبها وكم مرة مسح دموع الحزن من عينيه وكم مرة سمع
جاره يذبه الضحية لرصاصة تكاد تنطلق او صفق - في سره
على الاقل - لنجدة وافت في الوقت المناسب !

وما هذا فينا بغريب انه إرث من ايمان الانسان القديم
بالخرافة وبقية من تلك الرعدة العميقة التي كان يواجه بها
اجدادنا الاسطورة التي صاغوها بانفسهم كلمة كلمة ، وهو
اخيراً الصورة الاخيرة المتخلفة عن الركب من صور العقائد
الانسانية الاولى . .

ديد الوسى

سأنتقل بقرائي بين اساطير الامم ، وسأحاول في هذه
النقلة ان ابرز بوجه خاص صورة الحياة اللاواعية في كل امة
ومدى تصورها للبطولة في الوجود ، وكم وددت لو كان لي
شيء من سلطان سليمان او صحبة مع ملوك الجان إذن لطلبت
للقارئ بساط الريح في هذه الجولة البعيدة . او لطلبت له
بساطاً من نوع خاص لا يطوف به البلدان والآفاق فقط
ولكن يخترق به حجب القرون والسنين إلى الماضي ايضاً ،
بساطا يطوى الزمان طيه للمكان ويقف بنا اول ما يقف على

تل الآ كروبول في اليونان ، ذلك النل الذي يتطلع في شماله
 البعيد الى قنن جبل اولمب ويشرف بين يديه على آثينا .
 قبل خمسة وعشرين قرنا كان ذلك التل وما حوله من
 البلاد يعج بعالم رفاف من الآلهة وانصاف الآلهة نثره الحبال
 الشعبي الفنان في جنبات اليونان عند كل قمة وفي كل غيمة
 وشاطئ ، وغسق ، وعبر به عن تشاؤمه الأسود وعن موقف
 البطولة الذي يجدر بالانسان ان يقفه من القدر الشرس القاهر .
 والبطل في الاسطورة اليونانية يواجه قدره ويحمله مهما كانت
 رهيبته . ولا يقيم وزنا للاخلاق . إن الآلهة نفسها لا تأبه لها!
 ولكنه يمضي في الحياة بارادته الى النهاية الفاجعة المطرزة بالدماء
 وهو بهذا وحده يتسامى الى مرتبة الالهية التي لا تبعد
 كثيراً عن سوية البشر ، بل هي قاب قوسين او ادنى من
 مستوى الارض والانسان . ولو شئت ان اختار بعض النماذج
 من البطولة اليونانية لوقعت في حيرة سلفي المرحوم (خراش)
 الذي تكاثرت عليه الظبأ فما يدري خراش ما يصيد . وايا
 التقطت من النماذج فاني مطمئن الى اني ساقع على طريف من
 الحديث وجميل .

أسمعتم بديدالوس ؟ رمز الانسان الذي حاول التحلل من
 قيود الارض والطيوان الى السماء . كان ديدال اشهر نحاتي
 آثينا ، لم يكن فيها ابرع منه ضربة ازميل ، حتى كبر ابن
 اخيه بردكس ففاقه في فنه واضحى الرخام الذي يمر تحت يديه

يحرك عواطف الآلهة ويقرأ فيه الشاعر القصائد ، والموسيقي
 الألحان ، والمتأمل رعدة الحياة ، فنخر الحسد قلب ديدال وزين
 له ان يتخلص من ابن اخيه بقتله . وانفذها ديدال إذ اخذ
 برد كس في تزهة على الشاطئ ، الصخري السحيق ونهر منه غرة
 فدفعه إلى اليم... نعم! لقد تأققت الآلهة جسم الفتى واخذته اليها.
 لكنها ارسلت وساوس الهم والرعب تطوف حول رأس
 ديدال ، كالحفافيش الجارحة السود ، تطارده اية سلك . وسأله
 الناس بفضولهم الماكر عن ابن اخيه ؟ وتساءلوا فيما بينهم عما
 يمكن ان يكون جرى له .. فاختار ديدال الفرار من نفسه
 والفرار من بلده : حمل ابنه الصغير ايكاروس ولحق بصديقه
 ملك كريت فنزل في تصره مكرما . وبني له (اللابيرنت)
 ذلك التيه الذي لا يخرج منه امرؤ دخله ! ولكن جمال الملكة
 اغراه وهو المألع بالحسن والجمال فخان صديقه في أهله وعلم
 الملك بالامر فسجن الفاسق مع ابنه في حجرة ضيقة لا يرقص لها
 النور إلا من كوة مطلة على البحر الرهيب العميق !
 لن احدثكم عن شجن الاب الشيخ ولا عن بكاء الابن
 الفتى ، ولكن عن تلك الفكرة العبقرية التي التمتعت في الرأسين
 الفنانين وهما ينظران مرة الى طيور البحر الحرة البيضاء ..
 لماذا لا يصبحان هما ايضا طيرين ؟ لماذا لا يكون لهما هما ايضا
 جناحان ؟ وسرعان ما عمدا لتحقيق الفكرة : رشا حارسهما
 ليقدم لهما ريش الدجاج والبط والاوز الذي يلقيه قصر الملك

وادخرا الشموع التي تضيء ليلهما السجين الطويل . وثبت
ديدال الريش في الشمع وصاغ بمهارة الفنان الصناع زوجين من
الاجنحة القوية يكفي كل منهما لحمل قبضة من الرجال ، ولكنه
لم يرض ان يمنح ابنه الاجنحة قبل ان يحضه النصح : « بني !
كن دوما قريبا مني اخشى عليك العلو الشاهق فتصهر الشمس
شمع جناحيك وتموي في احضان بلوتو (إله الموت) ولا
ارى لك ان تدنو من الماء فانه إن وصل إلى الشمع ايبسه
واساقط قطعة قطعة .. لا معارج السماء يا بني ! ولا دركات
الارض ! »

وفي الصباح التالي انطلق من كوة السجن طيران مر قشان
ما رآهما شيخ ولا طفل ولا بطل إلا حسبوهما إلهين يتنزهان
فخروا للأذقان سجداً وضجوا بأيات التسبيح ضجيجا !

وشاعت الكبرياء في اعطاف الفتى إيكاروس فارتفع سعداً
في السماوات العلى وكان يغريه ان يصغر العالم الارضي في عينيه
ويصغر ، ويشوقه ان يسمع وشوشة الآلهة وهمس الافلاك
القضية !... أسفا للشباب الغض ! إنها ساعة انتقام الآلهة من
ديدالوس ! لقد انصهر شمع الجناحين ومر جسم الفتى وهـو
يهوى كحجارة الرجم قرب ابيه . وسمع الأب الشيخ صرخة
حاددة تدوي عند اذنه ثم رأى رقعة من الزبد على صفحة اليم
وتصاعد اليه رشاش عال من الماء وصل حتى جناحيه ثم ...
سكون عميق !! طفا من بعده الجسم الميت على الماء يحوطه

بعض الريش المنشور !

بشروا

ليس منا من لا يعرف قصة الخطيئة الاولى وحواء الاولى ،
وليس فينا من لا يعرف الاله الذي دفع حياته ثمنا لسعادة
البشر ... ولكن لدى الاغريق حديثا آخر لتلك الخطيئة
وذلك الاله . يروون ان الآلهة حين توزعوا تعمير الكون
اعطوا الارض للاله بروميشوس ، وخطرت لهذا الاله فكرة
عبثية (او ملعونة لست ادري) هي ان يجعل في الارض
اناسي على صورة الآلهة . واستعان ببعض الارباب فهدوه الى
العلم المسنون فصاغ منه السكان الاول والثاني والثالث
والعشرات والمئات .. صاغهم بشراً سوياً تفنن في بناء قاماتهم
ونحت عضلاتهم وتركب اعيينهم ورؤوسهم . وفرح الاله بما
صنع واغرته صلوات البشر الشكور كل صباح فبداله ان يزيد
في سعادة مخلوقاته بان يقدم لهم النار .. وكانت النار مقدسة
ومحرمة على غير الآلهة . ولكن بروميشوس كان مأخوذاً بنشوة
المبدعين حين اتى الموقد الاعظم فاخفى قبسا منه تحت ثيابه
ومضى الى خلته ، فبهتهم بما اتاهم وعلمهم ايقاد الجذوة في
الخطب الهامد ..

وتصاعد الدخان فعلا الافق ، وزحف الى السماوات العلى
فدغدغ خياشيم كبير الآلهة (زيوس) في اولمب . وشعر
الرب بالخيانة واحمرت عيناه من الغضب فزلزلت الارض

زلزالها واهتزت عروش الآلهة في الفتن الثلجية المؤترة بالضباب .
وهرول الجميع الى « مجلس تأديبي » الهى .

وجيء ببروميثوس ملطخاً بالوحل ، مغلل الاكف ، يمزق
الاهاب والنور . فحكمت الآلهة بربطه الى صخور جبال القوقاز
العالية . ويسخر زيوس نسرأ يمزق كل نهار صدره ويبحث عن
كبدته فيهرؤه نمشاً وتمزيقا . فاذا كان الليل بدل كبدأ غيرها
والتأمت مع الدسام الرطبة جراحه ، ايعود النسر الى تمزيقها
في الغداة .

ويل لسارق النار ، من ذا يغالب الآلهة فيخلصه من
العذاب المقيم ؟ ان آلاف السنين انقضت قبل ان يظهر بين
البشر البطل هرقل بن زيوس فيقتل النسر الشره الدامي ،
وينفك اغلال الاله ويعلمن تلك الفرحة الكبرى للبشر . ولكن
زيوس الذي لا يهدأ حقه ولا يذوب مع الايام غضبه - إلا
أمام فتنة الحسان - يقسم ليكيدن للبشر كيدا وليذيقنهم من
فرحهم نكراً فيجمع اليه الآلهة ويقرر الانتقام : ان جميع
البشر ذكران ، فلم لا يبعثون الهم بانثى ؟ بفتنة انثى ؟

وتبارى الآلهة مسرعين في ابداع هذا الكائن الجديد :
هذا يمنحها صلفه وتلك جمالها الغاوي وهاتيك ثرثرتها وذلك حبه
وفضوله وذياك .. آه ذياك الاله هرمز منحها قلب كاب ونفس
لص وروغة ثعلب وسموها (بندورا) .. حواء .

وحملت المخلوقة الفاتنة الى بروميثوس هدية غير محدودة من

الآلهة فرضاها غير شاكر . ولكن اخاه ايمثوس سفه رايه
وقبلها ونهل معها من خمرة الحياة الوانا .

وفي احد الايام ارسل الاله الاكبر الحقود الى الزوجين
السعيدين بانتقامه : بعث برسوله الى بندورا يحمل صندوقا من
الحشب الثمين وقال : انه هدية رب الارباب اليك ، لكنه
يشترط الا تفتحه إلا باذنه .

«ماذا في الصندوق؟» سؤال ألغته بندورا على نفسها ثم على زوجها
فلم تجده جواباً وقد ظل يتضخم ويتضخم ويلح يوماً بعد يوم...
وغدت تحس ان الصندوق مغلق على قلبها ونفسها جميعاً . وحاولت
مرة ان تفتحه فاستعصى عليها . وزاد فضولها اصوات مبحوحة
مكرومة كانت تهتف من داخله « أنقذينا » وعند ذلك القت
بالصندوق الى الارض فانكسر وانطلقت في جو الغرفة خفافيش
سود ذات مخالب حادة اهوت على بندورا بالعض .. كلما
عضها احدهم صاح : انا المرض ، انا الفقر ، انا الجوع ، انا البخل
انا القحط ، انا النفاق ..

واسرعت بندورا لتغلق الصندوق ولكنها وبالاأسف أغلقتها
على الروح الطيب الوحيد فيه : « الامل » وارتقت تتوجع
من جراحها . بينما انطلقت الخفافيش الى الفضاء الاوسع تعض
الناس وتوزع الشر بين البشر .

حين عاد الزوج ايمثوس فتفتح الصندوق فانطلقت منه
فراشة بيضاء شفت جراحات بندورا بخفة من اجنتها وشت

جراحات البشر وما زالت تأسو الجراح الى اليوم .
انها فراشة الامل .

هرقل

هو ثمرة إحدى مغامرات (زيوس) رب الارباب مع
حسناء من بنات البشر . علمت به (حيرا) زوجة الرب بعد ولادته
فاقسمت لتتخلص منه ولتبعثن به الى بلوتو سيد الجحيم .
فارسلت اليه في المهد بأفموازين ضخمين يخنقانه فما هرب أمامهما
كما فعل اخوه الصغير ولكنه تناولهما بقبضتيه الصغيرتين الجبارتين
وضغط على اعناقهما فاضطربا ثم ارتقت اجسامهما المنسابة هامدة
ميتة على الارض بين صياح الخدم ورهبتهم !

بهذا تبدأ قصة القوة الخرافية التي تميزها البطل الاغريقي
الاكبر هرقل ويبدأ في الوقت نفسه صراعها مع مكر الربة
الكبرى (حيرا) ..

نشأ هرقل وقد ذاب الحديد في عضلاته وتنزل الجبروت
في اذنيه وعلى منكبيه ! فما زاد ذلك حيرا إلا نفمة وحسداً .
فاوغرت صدر زوجها واستطعت ، في ساعة من ساعات
رضاه ، ان تختطف منه وعداً يجعل ذلك الفتى الجار خادماً
لدى ابن عمه النذل امير بلاد ارغوس !

امتحن هرقل اول الأمر بتمتتين احدهما الفضيلة في قدسها
والثانية غاوية فسوق ، في كل جارية منها شيطان فتزوج
الاولى واكن حيرا سحرته ذات ليلة فأصابته لوثة جنون

ورأى أن جميع من حوله قد استحالوا أعداء له فاقبض يقتل
ويخنق ويسحق والناس يفرون منه .

ولما صبح من لوثته وجد أنه قتل في من قتل زوجته الفاضلة .
فزلت المصيبة نفسه . وانطلق يريد التمرد على إرادة الآلهة
والعزلة . ولكنه يجد في إحدى غابات البلوط معبدًا صغيراً وما
يكاد يمكث فيه يومين حتى يحول وجلاً آخر : فخصيلات شعره
الجمعد تسترسل وأعضاء جسده تتطهر فيعمل عشاء ذات العقد
ويزين رأسه بتاج من أوراق الحور البيضاء ويخرج لتحقيق
إرادة أبيه إله الأكبر !

وسوست حيرا لأمير آرغوس أن يكلف هذا الجبار بالاعمال
الاثنى عشر التي لا يستطيع أن يقوم بها كثير من الآلهة .
فابتسم الأمير لفكرة المكر واستدعى إليه هرقل وأمره أن
يقتل اسد (نيميا) الجبارة وكانت المغامرة الاولى من السلسلة !
بات ليلة في كوخ قرب غابة نيميا فعرف المأسى الدامية
التي يرتكبها ذلك الاسد الضاري ذو اللبدة السمراء والجلد
الصفيق الذي لا ينفذ فيه سهم ولا يخمشه سنان . فخرج في
العمية الى لقياه وصارعه طويلاً فما استطاع هزيمته غير أن الاسد
في النهاية فر هارباً ! وعاد هرقل اليه في الليلة التالية فاراد
أن يشدخه بسيفه ولكنه ، وهو أمام الشدق الأحمر الفاجر
تفقد السيف فلم يجده .. لقد سرقته حيرا .

امسك هرقل بفكي سيد الغاب وضغط فسحقها سحقاً ثم

اطبق بزوره فخنقه وجره وراءه معفر اللبدة ذليل الجبين بين
هزيج الفلاحين ومزامير الرعاة حتى أتى قصر الامير .. وهناك
سلخ جلد الاسد واثر بها !

وعاد فكفه الامير بالافعوان (هيدرا) ذي الرؤوس
السبعة الذي كان يسكن في مستنقعات (ايرنا) الكدرة النتنة !
ذهب اليه هرقل فرآه ممتدداً وسط الجأ والصلصال ففوق
اليه السهام فانطلقت الرؤوس تتلوى نحوه .. قال هرقل انها
سبعة رؤوس ولكن الناس جميعا كانت تعرفها مئة رأس :
الشرر يتطاير من احداقها الصغيرة والسم يقطر من انيابها
والفحيح الذي يصم الآذان تصفر به ألسنتها التي تمتد أذرعاً ..
على ان أرهب ما فيها ان سيف هرقل ما كاد يطيح بأحد
الرؤوس حتى نبت بدلا منه في لحظات رؤوس سبعة اخرى !!
لكن هرقل ترك السيف وهجم بهراوته الضخمة على تلك
الرؤوس المتلوية يكمل لها الضربات الساحقة بسرعة تجعل
المشاهد لا يرى سوى دائرة سريعة الدوران فوق رؤوس
الوحش المتساقطة ؟

كان هرقل في الحومة حين أرسلت له حيراسرطاناً ضخماً
يعضه فسحقه البطل بطرف قدمه ! وفي اليوم التالي
عاد هرقل لقتال الافعوان وفي رأسه فكرة : أتى بجذعي
شجرتين ضخمتين فثبت بكل منهما عموداً من الحديد واحماهما في
النار فما يكاد يقع رأس من رؤوس الافعوان على الارض حتى

يكوي مكانه بالظلي الاحمر .

بعد ساعات كان الجو قد فسد من انفس الافعوان المسمومة
وكانت المستنقعات قد طفحت وشرقت بدمه المسموم ! وغمس
هرقل في الدم أسهمه المصميات للذكرى .

واستمرت مغامرات البطل على هذا النحو فتارة يندهه
الامير الحود لقتل ثور وتارة لخنزير وطوراً لحرب
الطيور ذات الخالب النحاسية ورابعة بافراس فاتكة ..
حتى كلفه في النهاية أن يأتيه من حدائق المسويد القصية
بتفاحات هسبريا الذهبية التي تشع في الليل كأنها الكوكب
الدري . والتي يجرسها تنين هائل له سبعون ألف رأس في كل
رأس سبعون ألف عين وسبعون ألف ناب للسم وله فحيح أين
منه زمزمة الجن أو مكاء الشياطين !

لقد اضطر هرقل في سبيل بغيته أن يحارب المارد الجبار
أنبيوس ابن الارض ويقتله ولان يحمل قبة الفلك الدوار مدة
طويلة عن الشيخ أطلس !

إذا انتهى البطل من مغامراته دعاه ابوه إليه فأمره ان
يصارع الآلهة . ولكنه وبالعجب يصارعها جميعاً في اولمب امام
ابيه ثم يحب ويتزوج ولكن حيرا وكيد حيرا مايزالان بالمرصاد
فتبعث إلى زوجه بقميص مسموم تزعم انه يزيد من حب
زوجها لها ويلبسه هرقل فيلصق به ويفقت عضله ويهرأ عروقه
ويساقط لحمه مرقاً !

تنتهي المأساة بارخاء الستار على هذه البطولة وعلى كل بطولة
مهما جلت يقوم بها الانسان !

أوديب

يجب ان تعرف قصة هذا الانسان - البطل انه انت
وانا في المأساة الانسانية التي نحيها ، انه دموء - لك ودموعي
ونحن ماضون مع القافلة ... إلى أين ؟ لسنا ندري ! كما لم يدور
اوديب نفسه ! لقد تكشفت له في نهاية حياته كل ألغازه
ولكن الآلهة كتمت عنه الامر الوحيد الذي تكتبه عنا
جميعاً : لماذا اشفته ؟ ولماذا ساقط على هذا النحو قدره الفاجع ؟
يروون ان الآلهة حذرت الملك لا يوس (ملك طيبة) ان
يطلب منها ولداً ، لان هذا الولد سيقتله وسيتزوج امه وسيجر
الشقاء الى مملكته .. ولكنها مع ذلك منحته ذلك الولد ! ولما
وقف لا يوس امام ميراثه ارتاع إذ رأى في عينيه كل أقداره
السود ترف كمخالب التيتان . فأمر ان يحمل الطفل الى الجبل ،
وان يقتل ، وان يلقي مرقاً على الصخور الحادة ! إلا انه لم
يدرك ان اشفاقه قد جاء متأخراً وان اللوح المحفوظ قد بدأ
يسجل مأساة اوديب التعيس ، كما ارادتها الآلهة ، مأساة مختارة
من ملايين المآسي الانسانية المكرورة في كل قلب !

أعطي الابن الملكي الى راعي الملك لبقته ولكن هذا
الجلف أدر كته الشفقة ان يقتل هذا الابن الوحيد لملك البلاد.
فعلقه من رجله الى شجرة بطرف واد على الحدود البعيدة .

ويتفق أن يمر راعي الملاك المجاور بالطفل المدلى فيجمله الى
مليكه، هدية تشغو وتبكي .. فتدرك الملك عاصفة حنان ويأمر
بان يربي الطفل في القصر .

هذا الشكل تتوفر لا وديب حياة فاعمة هائلة تستمر حتى
تمر به الطفولة والفتوة واليفاعة ويبدأ عهد الشباب . وعند ذلك
يبدأ أوديب بفهم معنى النظرات الماكرة التي يرمقه بها الناس
ويدرك فجوى الهمس الذي ينقل بين كل فم واذن حين يمر ..
انه يظن نفسه حتى ذلك الوقت ابن المالك وولي العهد !
ولكنه يعرف الان انه لقيط ؟ واذن فما مقامه بهذا المكان
الغريب ؟

و ذات فجر ، رأى الحراس اوديب يتسـال من اسوار
المدينة ويركض الى الغابة المجاورة فتبادلوا الغمزات بانما كان
الفتى يندفع بكل قوته بين الادغال كأنه ثمة نداء بعيداً
يستحثه ويلهب ظهره بالسياط .

وفي عطفة من الطريق التقى ببعض السيارة . لعلمهم صيادون
او قطاع طريق او جماعة من التجار .. لا يدري ، ولكن شجر
بيته وبين احدهم خلاف فتركه اوديب صريعاً على الثرى ومضى
لطيبته ، وكان قد وصل الطرف الثاني من الغابة حين سمع
صياح رفاق القتيل وجلبتهم وتناديهم ...

دخل مدينة (طيبة) او مدينة في طريقه . وعند الظهيرة ،
دبت الصيحة بين الناس ان الملك الذي كان يتصيد في الغابة قد

قتل ! وتجمعت البلدة عند الابواب تبكي جثثانه . وبكى
اوديب مع الباكين دون ان يخطر في باله انه هو قاتل الملك
وانه يبكي اياه ، وان قدره الاسود الاول قد تحقق !

واذركته اللعنة الاخرى ، حين ظهر حول المدينة تين
خفيف يفتوس المارة او يجلوا له الغز الذي يسألهم اياه . ولم يكن
احد يدري ماهو الغز لانه ما من مار في تلك الطريق الاعجز
عن حله وصرعته انياب التنين . فلم يرجع .

عند ذلك اعلنت ملكة طيبة انها على استعداد للزواج من
اي شخص يحمل الغز ويخلص الشعب المحبوب من الفناء . وذهب
اوديب بين الذاهبين فسأله التنين :

— ما الحيوان الذي يمشي صباحاً على اربع وظهرأ على
اثنين ومساء على ثلاث ؟

وألهم اوديب الجواب الصحيح
— إنه الانسان .

ودهش الناس حين سمعوا ان التنين نفذ الوعد التي آلاه
على نفسه ، من ان يرمي نفسه الى البحر ان كشف احد لغزه .
المعجز ، وعجبوا لهذا الفتى الذكي الغريب يعود اليها ملكا
للمدينة وزوجاً للملكة .. التي لم تكن غير امه !

ومدت الآلهة لاوديب في العمر والعمل حتي رزقته
باربع بنات وعند ذلك سافت على طيبة الوان الشقاء والمتربة
والعذاب والمجاعة والمصائب . وانصرف الناس إلى المعبد يضرعون

واقبل اوديب على كل عراف يسأله استرضاء الآلهة والعون .
وإذ ذاك افتضح له سر حياته كله !..

وزلزلته المصيبة فأحى في النار سيخين - ديدن وفقاً
عينيه وخرج من مدينته تائهاً ، تجره في تشرده ابنته الصغرى .
وعند ذلك قالت الآلهة تمكرب به :

- لقد منحنا البركة لاي ارض يرقد فيها جثثك يا أوديب !؟

اي سخر قاس في هذه المنحة الالهية !!

إن اوديب حين هت الالهة الاخيرة على ارض اثينا لم يكن
يدمى قلبه سوى هذا السؤال :

- لماذا تشقونني ؟

في ببرى

أرأيت الى تلك الالهة السمرء التي تراودك حين تفيق من
حلم حلو فتغمض عينيك من جديد طلباً لذلك الحلم الحلو ؟ إنها -
لهفتي الان وانا اترك الحديث عن اساطير الاغريق لأنحول الى
اساطير بلادي . وددت لو بقيت مع تلك البطولات الخرافية
ابعث منها ايضاً ثيسايوس وهو يخوض التيه ، وبسيدشه يلفحها
الحب ، ولياندر ساجماً البحر الى من يحب ، وافروديت خارجة
بكل انوثتها ونضجها من صدفة البحر ، وددت ... انكن
دعونا من بلاد اليونان فهي مغرية الفنون وحديثها ذو شجون
وشجون ، وتعلموا معي على بساط الرح الى بلاد العرب والى
الاسطورة العربية .

ولعلنا نظلم اسطورتنا إن نحن وضعناها مباشرة بعد تلك
الالوان الحسبة المواردة التي تتلفف بها اسطورة الاغريق ولعلها
تبدو عندئذ باهتة الملامح وتظهر البهولة فيها كسيجة القوى
هزيلة المثل . يجب ان نذكر فقط ان العقلية العربية غير عقلية
ابناء هيلاس ، وان ذلك المزج اللعوب الجري . بين عالم السماوات
والاله ذي العرش الاعلى ، وبين عالم الارض والبشر هو أجراء
من ان تحمله الروحية العربية . إنها عالمان منفصلان عندها
اي انفصال . والهوة التي تضرب بينهما لا نهائية حاسمة . وإذا
كان لا بد من برزخ يصل ما بين العالمين فان الله العظيم الجبار
يصطفى ويختار من شاء من البشر ، ليكون رسوله المجتبي
ويحمل اوامر السماوات العلى الى « القطيع الضال » على الارض
فاذا نحن تجاوزنا عن مرتبة النبوة التي لا يصلها إلا من أوتي لحة
إلهية من العطف ، فان البطولة العربية تقف عند حد البشر
والقوى البشرية لا تجاوزها الى اللعب مع الآلهة والمكر بها !
وهي لهذا لا تتلون بالوان العصور وتتشنى مع لفتات الظروف .
فبطولة العصر الجاهلي يذهب بها غنيرة الذي كان يضرب بالسيف
مئة عن يمينه ومئة عن يساره ويجب ويظل يجب حتى يفوز بجبهه ،
ويذهب بها المهلهل الشاعر صاحب الثارات . وبطولة العصر
العباسي يحملها (السندباد) رمز التاجر الرحالة ، وتمثلها
(شهر زاد) رمز المرأة التي تسود القصور ، والشاطر حسن
ودليلة المحتالة ومز الطبقات الفقيرة الماكرة ، وبطولة العصر

المملوكي تتمثل في الملك الظاهر وشيخة جمال الدين ... ومن
الهم من الابطال المنافحين عن العقيدة والدين .
ولا يكافح البطل العربي القدر ولكن يستسلم اليه في سعادة
وطمأنينة لا تدع في روحه اي منفذ للتشاؤم وهو يعلم ان
الموت حتم معجل فلا يحاول الخلود كالاله ولكن يريد ان يبق
منه للناس فقط الذكر الحسن :

أماوى ان المال غاد ورائح
ويبقى من المال الاحاديث والذكر !

* * *

ولما المرء حديث بعده

فكن حديثاً حسناً لمن وعي !
ومن ها تبز قيمة الاخلاق والمثل الاخلاقية لدى البطل
العربي وتأخذ المكان الاول من مقومات البطولة .
أنا في في حاجة الى الامثلة ؟ لعمري لا احتاجها . فتلك بين
الايدي الكتب الاثنان والثلاثون تروي اسطورة عنقوتة الذي
مات في النهاية غدرآ - كما مات هرقل - على يد الاسد الرهيص
وتلك أمامنا المجلدات الاربعة التي تحمل حديث الف ليلة وليلة
قضاها الملك شهر يار منصتاً الى شهر زاد ناسيا ان له امرأة
خائنه وانه اقسم ليلتقن من الجنس اللطيف (الماكر !)
فيذبج كل صباح المرأة التي تزوجها في المساء ...
ولا ادري من أين تقفز الى خاطري هذا اسطورة عتيقة
مجمعتها من جدتي وانا بعد طفل فما تذاكر تخيلتي : حين تحين نهاية

العالم يأذن الله لشعب أجوج ومأجوج ذلك الشعب القزم الكافر
 اللعين السجين وراء السدود الفولاذية التي بناها من حوله
 الاسكندر ، يأذن لذلك الشعب ان يبري بالسنة ابواب السد
 ويتدفق بزعامه بأجوج او مأجوج - لا ادري - فيطوف الدنيا على
 حماره الاعرج الذي تعزف في كل شعرة من شعرات ذيله جوقة
 موسيقية كاملة بطبائها وبوقها وصناجاتها .. ويلحق الناس به
 مجذوبين اليه بقوة من الشر لا تقهر ... حتى يعود السيد المسيح
 فيجاربه وينتصر عليه ويملا الدنيا عدلاً بعد ان ملئت جوراً ..
 ان الانسانية كلما تجهم لها الزمن داعبت في خيالها هذا
 الحلم : حلم المنتد الذي سيأتي في آخر الزمان .. ولكنها - على
 ما يظهر - ستنتظر طويلاً !

رستم

يقولون إن مهامه الصحراء يستدعى بعضها بعضاً ويجر
 الكتيب فيها اخاه الكتيب ورائه ، في تشابه لا متناه ، وفي
 جلال رهيب ... هكذا اراني بعد ان تحدثت عن الاسطورة
 العربية مسوقاً الى صحارى ايران من صحارى العرب .
 فمتحدثاً بالمناسبة عن ابطال كرمان وهرات وسجستان . والبطولة
 الايرانية قريبة الملامح من البطولة العربية ومن ابطال الجاهلية
 خاصة فهي بطولة بشرية لا ترقى الى السماء ولا تهبط منها .
 وروعتها في تلك الفروسية السمجة التي تسيل على حد الظبي
 وتتغفر دوماً بالقتام . واذا تميزت بشيء فبانها سلالة ارسقراطية

تنتقل بطولاتها بالدم . ومثلها الاعلى حماية النظام القائم وخدمة
الملوك فلا التسامي الى السماء يستهويها لان مخادنة الآلهة من
وظيفة الملوك ولا خلود الذكريغويها فحسبها أن تملأ قدرها الجري .
ولما لم يكن ثمة من يتغلب عليها فقد تغلبت على نفسها ، في النهاية ،
بان انتحرت ... او هذا على الاقل ما فعلته الاساطير
الايوانية ، في قصة :

سام وزال ورستم !

بلغ سام والد الابطال من الكبر عتياً وهو على خدمة الملك
منو جهر ، وكانت فجيعة حياته انه لا ولد له . كان ينظر إلى
السماء فيرند بصره مغشى بالدمع . ولقد ذرف الكثير من ماء
الشؤون قبل ان يرزق اخيراً بذلك المولود (زال) الذي ولد
ابيض الشعر كفرخ القطاة ! وانسحت بسمة السعادة عن شفتي
الوالد حين وسوس له الناس بما يعرفون عن امثال هذا المولود
الثلجي الغرة .. إنه من نسل الشياطين ! !

وادرك سام الغم ، ان تعبت به في آخر حياته آلهة الشر هذا
العبت الماكر البشع ، فقرّر في لحظة يائسة ما قرره ابو اوديب
من قبل : ان يتخلص من الطفل بالقائه لوحوش الجبال ..
وفي الجبل مرت العنقاء بالطفل فجعلته الى عشا وربته فيه
حتى بلغ اشد الشباب وامتلاً قوة وعقلاً ، بينما كان اسف ابيه
عليه يزداد يوماً بعد يوم . وتحول الأسف ندامة ثم حسرة ثم
لوعة الى ان رأى سام في النهاية حلماً فسره له المرازبة بانه يجب

ان يذهب الى حيث اودع ابنه زال من الجبل فيصلي ليرده
الله عليه ...

وكان ذلك . وردت العنقاء إلى الأب الملتاع ابنه الواليد:
شاباً ضاع الأب بين ذراعيه عند عناق اللقاء !

كان زال بضرب متنزها في ارض إيران حين وصل مملكة
مهراب الملك الجار ، ولكنه لم يشأ ان يزوره لان عداوة
مهراب للمليكة منوجهر معروفة . فضرب نخيمه بعيداً وبعث
يستشير اياه في الزيارة . وخلال الانتظار ولد حب بين قلبين
شابين : قلب زال وقلب رودبة بنت مهراب ! عشق كل منهما
الآخر بالسمع « والاذن تعشق قبل العين احياناً ! » وتوسل
زال بجوارري رودبة حتى قابلته ومدت له شعرها حبلاً يرقى
اليها به ! على ان عاصفة من اللؤم تمب في تلك الفترة وتكاد
تخنق امل الحبيبين فان منوجهر الملك ، الالهى المطاع لا يرضى
عن هذا الحب الذي سارت اخباره في الآفاق ويأمر الاب
الشيخ (سام) بان يقود حملة تفتح بلاد مهراب ، بلاد الحبيبة !
ويصطارع في قلب زال الواجب والحب لا يريد التكرار
لذلك ولا يطبعه فؤاده بالتخلي عن هذا ؛ فيوفق بينهما باقناع
الملك بقبول زواجه من فتاة احلامه ويقبل الملك وتكون ثمرة
الزواج اعظم ابطال ايران : رستم !

وينشأ رستم نشأة ابيه وجده في الساعد المقتول والجنان
الثابت البطل ، والفروسية التي يزيد فيها حصانه الخاص :

الرخش ! ولقد سرق منه الرخش مرة في بعض انحاء تركستان
فلما ذهب يفتش عنه انتهى نفسه في حبائل ابنة الملك هناك :
ثمينة ، ثمينة التي ما سرق المهر إلا لتعطى بفارسه ! ويتزوج
رستم منها ولكنه يضطر الرجوع الى بلاده دونها فيترك لديها
خرزة زرقاء لابنه الجنين !

ويذهب رستم بعد ذلك لانتقاذ الملك كيكاس من الجن
في مازندوان ... إن حق كيكاس ووطه في الحرب والمهزومة
واقفده البصر والحرية معاً ويضطر رستم لاقحام مازندران
وحده . ثم لقتل ملك الجان الذي كان يرقد في مغارته كاتنين
العظيم والحيات النارية ترقص حوله ! وانتزع رستم منه كبده
الذي لا تشفي عبون الملك من العمى إلا بمسحة منه !

ويقع الملك مرة أخرى في الاسر ، فيخلصه زال ويخلص
إيران كلها من الترك فيعطيه الملك لقب (بهلوان العالم) وإنه للقب
أو تعلمون عظيم !

وأخيراً لم يكن رستم يدري ان زوجته ثمينة التركستانية
قد ولدت فتى سمته سهراب ونسل الابطال بطل .. وقد قرو
الفتى البطل ، حين عرف انه ابن رستم ان يحمل خرزته الزرقاء
ويذهب لايران فيعزل ملكها ويولي اياه بدلاً منه .. ولكنه
يلتقي في الطريق بجيش ابيه رستم وليس يعرف احدهما الآخر
ويضطر البطل العظيم لان يبارز الفتى بعد ان اشتهر بأسه
ولكنه يكره ان يعرف الناس أن رستم قد تدنى لقتال فتى

توكي فيقدم نفسه على أنه عبد لرستم ! ويستمر البراز اياما
ثلاثة وكـم من مرة ظفر الفتى سهراب بغرة من رستم فكاد
يفتنمها لقتله ثم لا يدري ما الذي يسكه ؟ إلى ان يفوز الاب
اخيراً منه بطعنة محكمة ويصبح معها عن عادته صيحته المعروفة
« رستم ! » وعلى دفق الدماء والدموع يتعارف الاب بالابن
ولكن في لحظة الوداع الاخير ..

هكذا تنتهي سلالة الابطال على يد الابطال انفسهم فيما
يشبه الانتحار لانه لم ينتصر ولا يجب أن ينتصر على
البطولة أحد !

المهاجر اراتا

أرأودتك نفسك يوما ان تصادق إلهاً او تعابث إلهة ؟
اجربت يوما ان ترى في بعض هذا البشر الذي حولك اربابا
متكبرين وارواحاً قدسية من السماء تقمصت في جلود الارض ؟
والبلاية التي تزحف إلى شباكك ، هل خطر في بالك يوماً انها
قد تكون إلهاً يمد اليك خده ؟ هذا وامثاله كثير في الهند
فالآلهة في تلك الديار تتنازل إلى التراب الارضي وتقمص
أجسام البشر وتعمل بأيديهم وتنظر بعيونهم . فاذا تجسدت
أمامك بطولة من البطولات في قري ، او طفل ، او في نبتة
على حافة الوادي فحاذر ان تردبها فقد تكون مقلنا الاله
تطلان منها ! قد تكون ! وسل اساطير الهند اذا شئت فان
لديها من ذلك انباء عجابا !

لقد خرف الخيال الهندي كما خرف غيره من أخيلة الأمم
 وأكثر خرافات الهند شأنها وأقواها تجدها في ملحمتي المهابهارتا
 والراماينا وهما من الأدب الهندي بمنزلة الإلياذة والأوديسة
 من الأدب الإغريقي . ويخطر في بالي هنا أن أثبت المشابهة هنا
 حتى مدى بعيد فالتشابه في أساطير الشعبين غريب وإنك
 لتتقري في ملامح كثير من أبطال الهند ملامح أبطال الإغريق
 وتلمح في بعض أعمال أولئك طيفا من أعمال هؤلاء . وتجدها في
 (باندو) و (بيرو بكشا) زملاء اندادا لهرقل وثيسوس
 وأوديب ! . وتجدها التشاؤم الإغريقي والنظرة السوداء للحياة
 وأولية الألم في الدنيا واضحة في الفكر الهندي ، هاتفة في
 الأسطورة الهندية وضوحها وهتافها في آثار اليونان .. لكني
 لا أجاوز هذا الحد في بث التشابه لأن أبطال الهند يرفعون
 المفاهيم الأخلاقية ، ويؤمنون ببقاء الروح وبالتفريق بين صالح
 الأعمال وخبيثها ، وأبطال الهند لا يصرون القدر ويؤثرون
 الاستسلام (النرفاني) الزاهد له وليس كذلك أبطال هيلاس
 ومخلوقات هوميروس !

وبعد فاني لم أقرأ ولا أستطيع أن أخصر (المهابهارتا)
 الملحمة التي تحوي (٢١٥) ألف بيت من الشعر ! ولكنني اقتطف
 مما أعرف منها نقفاً ولحا . تقوم الملحمة على قتال الأخوة الخمسة
 (الباندوا) مع الأخوة المئة (الكوروا) . وقد انصرت
 الكثيرة على القوة وأطل دم الباندوا فانطلقوا الخمسة يضربون في

فجاء الهند للمغامرة .. ومن اروع مغامراتهم قتالهم لعفاريت
 الغاب المفسدين الذين يتصورون بمختلف الصور فتارة هم قصب
 على ضفاف الغدير يعزف الالحان وتارة هم اطياف في الجو ومن
 القمارى والسنونو والغربان وتارة هم اثار مرة او فراش مزوق
 كان اروع الاخوة في قتال العفاريت (بهاسينا) ذو الذراعين
 الطويلتين والبطل الذئبي .. فلقد استأصل العفاريت واغوى
 بناتهم بجماله ونال جوائزهم في جميع مباريات الروسية ولقد
 التف به مرة ثعبان هائل أقسم لا يتركه حتى يحل (بهاسينا)
 أنمازه - كما فعل الغول مع اوديب فاستطاع البطل ان
 يتخلص منه بقوة بيانه وان يقتله كمدأ ! أما اخوه (ارجبا)
 فقد قرر ان ينال بالزهد درجة إله في السماء فالتزم الحمية واغذى
 بالهواء وجافى الاوراق وبقي واقفا على ايهام رجله رافعا ذراعيه
 في الهواء حتى ازعج مجلس الآلهة . وقد اتفق له من البأس ما
 حارب به الآله (شيوا) الذي كان متنكراً في صورة صياد ..
 وانتصر عليه النصر الذي انتصره هرقل مرة في اولمب !
 وفاز احد الاخوة الخمسة بابتنة احد الملوك لأنه ثنى قوسا لم
 يستطع انسان ثنيها وخرجت الآلهة من منازلها السبابة تشهد
 عمله ! وقد غدت الفتاة زوجة لهذا الفتى ولاخوته الاخرين
 جميعا . وكانت معهم حين عادوا لحرب اخصامهم القدماء
 (الكوروا) المئة وحين ثأروا لأنفسهم منهم .. وسحقهم
 كالديدان !

واخيراً ! يحس الاخوة الخمسة بدنو الاجل وقدب الشيخوخة
في دمائهم فيعتزلون العالم في بعض جبال هملاية حيث تفيض
ارواحهم هناك على الصخور القائمة القاسية بطلائثر بطل !..
واذ ذك يعرف الناس ان الاله الاكبر (وشنو) قد تجسد في
كل منهم كما تجسد الآلهة الآخرون في كل اعدائهم ..
أترانا ، حقاً ، على هذه الارض آلهة تصطدم بآلهة ؟

راما

هل أتاك حديث واما ؟ إنه بطل الرامايانا ثانية للمحتمتين
الرائعتين الهنديتين وقد تحدث عنه الهنود في (٤٨) الف بيت
من الشعر .. فقط !

زعموا ان الالهة ضجت في عليائها من عسف ملك الجن
وسيد غفاريات الغاب (راونا) بعد ان سام كهانها الهوان
ومنع عن أنوفها قتار القرابين ! فرأى مجلس الارباب أن
يتجسد الاله وشنو ، احد الاقنيم الثلاثة ، بشراً ارضياً لحربه .
وكان الذي أرادته الالهة . فولد وشنو في صورة (راما) ابنا
لأحد الملوك وشب عنده وتزوج الحسنة سيدتا ذات القامة الهيفاء
والفهم الخمور . ولكن احدى زوجات ابنه تعمل على إقصائه
فيعتزل الناس في الغاب مع زوجته ، والغاب مملوء بالغفاريات
الغاوية ! وفيه الهة الرائعة الحس : سور بن أخت سيد الجن
(راونا) الا تراها تحاول إغواءه ؟ بلى ! ولكن الزوجة الصالحة
تخيق محاولتها معرضة بذلك نفسها لخطر الافتراس والتمزيق

بالاظافر ! ويتمكن أحد اصدقاء راما من جذع أنف السعلاة
وصلم آذانها !

ولم تستطع سوربن الانتقام لأن العفاريت الاربعة عشر
الفا التي جاءت اليها بعد ذلك هوت على شبة النبال السحرية التي
قذفها بها راما ! فذهبت تلك الحنقة المرزأة الى اخيها « ذي
الوجوه العشرة والذرعان العشرين » تستنجد به .. وتطير
المركبة السحرية (براونا) الجني الاكبر الى الغاب
لاختطاف سيدنا ..

كان راما في كوخه مع حبيبته يستمع لهمس النجوى منها:
اقسم بحبك أني لا ارغب في سكنى السماء بعيدة عنك . انت
سيدي وانت دليلي وانت إلهي . سأذهب معك . اراك تريد
دخول هذه الغابات الكثيفة الوعرة فأسألك امامك لأحطم
تحت قدمي العشب الناهض والعوسج الشائك فأشق لك طريقاً ..
ايها الامير العزيز ! ثق بوفائي .

كان راما يسمع لنجوى سينتا حين بدا له الظبي السحري
(مارتجا) انه ظبي رائع غريب يظهر تارة ويختفي اخرى
ويعدو حيناً ويقف حيناً آخر . انه « كالقمر في الحريف تحجبه
السحب تارة ويبدو عند تقشعها تارة اخرى » .. فتناول راما
قوسه ولحق بالظبي فوق هذه الرابية ثم وراء ذلك المنحني ثم بين
الشجر الملتف . وكان المستمع لراما يسمع هتافه المتزايد في
البعد خلال الغابة « هاهو ذا يقبل .. اراه .. لقد توارى ! ..

لقد ظهر . . .

استطاع الغزال السحري ان يستدرج راما بعيداً بعيداً
عن عش غرامه بينما كان (راونا) الجني الماكر يتقدم في زي
احد الزهاد الى العش ويدعو سيمتا الى مر كبته فتتركب . .
وتطير المركبة المسحورة في الهواء والدمع بجمرة الدم يتطر
منها ! ولم يستطع النسر ، ملك الطير وصديق راما ان يوقف
المركبة ورغم انه شوه (راونا) فقد هوى من السماء قتلاً ،
كتلة من الريش والدم ! ووصلت المركبة بالسبية الى قصر الجن
الاكبر في سبلان !

ويضرب راما في كل فج بحثاً عن الحبيبة المفقودة ، يسأل
عنها الدوح والنهارى وزهر النيلوفر ويكتشف له احد القروء
مكانها فيغزوه بجيش تتنزل الكتائب من السماء لشد ازره :
وبعض هذه الكتائب مخلوقات ذات 'رجل وذرعان كثيرة
تلبس الاساور المرصعة بالجواهر وترتفع في لواء كأنها الافيال
والجبال ورؤوسها الكثيرة تقذف النار من العيون والافواه .
وبعض الكتائب الاخرى في صور انواع الوحش من الخنازير
الى القطط . وفيها الثعابين الرقط والضفادع والحيتان والتمايح !
وبعضها بغير رؤوس وترمي الشرر من المسام ، وبعضها
تنفث كل شعرة في جباهها وابدانها باللهب وترمي بشرر كالتصر !
كان الهجوم رهيبا بعد هذه الكتائب اذ زلزلت الجبال
واقتلعت الرواسي وتهاوت الغابات فوق الرؤوس وضجت

الارض بالا صوات المنكرة وسقط اخو الجني الاكبر صريعا
 بسهام راما فسحق الفي فرد عند مسقطه ! وما كان (براونا)
 قد هزم بعد حين جرح راما جرحا قاتلا ! لكن ملك الدببة
 يعرف لحسن الحظ نباتا سحرى على جبل بعيد اشفائه وحين
 ارسل ملك القردة لحمل هذا النبات اقتلع الجبل جميعه واتى به !
 فلما برىء راما عاود المعركة وسدد السهم الالهى الذي اهداه
 اليه براهما فأصمى به فؤادواونا ! واذا ذاك هتفت الآلهة الخالدة
 للنصر الاكبر ، نصر الخير على الشر . . .

* * *

منذ قرأت الاسطورة وانا اسأل نفسي متى تراها ، هذه
 الآلهة ، تهتف مرة اخرى !

في ايسلنده

أولب صفحة الهند الحارة لانتقل ، في مثل قفزة مرده
 الاساطير الجبارين . إلى الشعوب الشمالية ، والنقلة من حرارة
 الى صقيع الجليد الشمالى نقلة غير مأمونة ، ولا يبعد ان نصيب
 منها بعض النزلة الصدرية ! ولكن الرؤى الاسطورية هناك
 من الطرافة بحيث تستحق هذه المغامرة !

لن تحط عند الجر من او الغاليين ولا السكسون ولا
 الفنلنديين ولكن في تلك الجزيرة البعيدة الموحشة : ايسلنده
 ذات البراكين الهامدة ، والكهوف المظلمة ، والجبال القفر

والقهم الجحمة ، عليها مع الثلج كتفاريق الشيب في الهامة
الشطاء ...

هناك ، في تلك الجزيرة ، وفي تلك العصر الذي انشده فيه
هيرميروس إلياذته والهندي القديم مهابهارتا ، تغنى الناس
بآلهمهم الابطال اغاني ملؤها الخيال والرهبة وثقت تلك
الاغاني على الشفاء حتى اتاها قسيس نصراني كان لا يزال فيه
عرق يدس إلى دين اجداده الوثنيين فجعلها عن الالسنه في
ملحمة واحدة هي الالدار (١) .

وتقرأ الالدار فتجد البطولة والالوهية قد التقتا في مفهوم
واحد وتجد الاله المعبود هو نفسه البطل الشعبي ثم لا تجد
لذلك الاله - البطل - من موقف رائع امام القدر ولا تعرف
له من الحوارق او عظة الاخلاق ما يذكر . وإنما هي رموز
فقيرة وتجسيد ماذج للطبيعة ، وروعة البطل لا تظهر في عمله
ولكن في حجه !!

يقولون مثلاً إنه لما تحارب الجليد والناو حدثت ريح ،
حارة اللانح ، تكون منها مارد اسمه (ميير) ثم احتال الآلهة
حتى قتلوا ذلك المارد واخذوا جثته فجعلوها (دنيا) فامادها
فذلك هو البحر واما لحمه فهو الارض والصخر عظامه وجعلوا
حاجبه مسكناً لهم وهو الجنة (اسجاردا) ورفعوا جميعته

(١) هذه هي الملحمة الشعرية وهناك ملحمة اخرى مثلها نثرية جميعها
رجل من سادة ايسلندة بعد هذه وهي حافلة بالعقائد الوثنية .

فهي قبة الفلك واما ما بها من دماغ فهو السحاب .
ولا ادري بين هذه الافكار الماردية الهائلة التي ينغرس
اصلها في الارض وفرعها في السموات . اين وضعوا بعد جهنم
(جوتنهم) تلك البقعة القصية الخراب التي يسكنها (المردة)
اولئك الخاليق الجسام ، الشعث ، الغبر الصور الدين يلتقي فيهم
طبيع الجليد ولذعة النار وزوبعة البحر ...
ويمضي الحيال الشعري بالايسلنديين على النجوى الذي نراه :
فهذا الجليد شيطان اشيب الشعر واللحية ، تراه إذا اظلم الليل
يسوق افراسه البلق (اي سحب الرياح والبرد) الى كهفه
القصي ليمشط شعورها . وهذا الرعد زجاجة الاله - البطل
(ثور) الذي يدفع عجلته فوق قنن الجبال فترتفع قعقه
اصواتها في الآفاق ولقد ذهب مرة الى ديار المردة ليحلب
لصديقه الاله (هيمير) مرجلا يصنع به الجعة فالتقى هناك
بشيخ الابالسة ذي اللحية المرصعة بالبرد وذوي النظرات التي ما
وقعت على عمود إلا انفلق من حداثها .. وبعد طويل صخب
وعراك بأخذ ثور المرحل فيلبسه في رأسه فذا هو قد بلغ
قدميه !!

ويذهب مرة اخرى الى حدائق المردة مع صديقين من
اصدقائه فلما سجا الليل أروا إلى كهف وجدوه . ولم يكن
الكرى قد عقد اجفانهم حين هبوا على ضوضاء رهيبة . فخرج
ثور بعموله العظيم ليراها ولكنها ... ما كانت سوى شخير

ومن ذا الذي ياتر يصارعها من إنسان أو إله ؟ واما انا
ياترو فأملك الارض ...
ونظر ثور ليوى أمه فاذا بالمارد قد تلاشى امام عينيه !

بارسيفال

دعونا اخيراً نزع هذا الشرع الامطوري الجوال الى
شاطئنا نحن . لقد طوف بنا عبر الزمان والمكان منذ اصابع .
واحسب ان الشقة طالت بنا قبل ان نصل الى هذه العصور
التي نحياها ونسأل هذه الحضارة التي ننعم او نشقى بها عن مكان
الاسطورة منها ؟ وعن البطولة ايان مثلها الاعلى ؟
لقد قتل هذا العصر الآلي ، فيما قتل ، شعور العاطفة والفن
الجميل ، واضحت لغة الهاتف والبرقية هي المسيطرة وقرارات
الريدز داجيست هي المرغوبة ، ومذهب المادية الجدلية او
مذهب الذرائع هي الفلسفة الكلاسيكية المقررة . واظن انه
لا ثغرة في هذا الزحام المادي تدس منه الاسطورة انفسها ،
ولا افق يطلع منه الوهم قرنه ، ولا منفذ للتساؤل الروحي
العميق ! تقرر هذا منذ انتصرت نظارة غاميلة على مغاليق الفلك
ومنذ دخلت العلوم في تجريبية باكون وميكانيكية ديكارت ،
ومنذ ظهرت الآلة ، هذا المارد الجبار ذو مئات الانوف التي
تنفث الدخان في الهواء ، ومنذ تعلقت العيون بالطبعة وذاب ،
امام المعادلة الرياضية ، ما وراء الطبيعة !
هكذا اختنقت الاسطورة بين صرير الآلة وقسوة القانون

مارد ضخم وقد تبينوا ان الكهف الذي باتوا فيه ليس غير قفار
ذلك المارد .

وقد حاول ثور قتله فضربه بالماحول ضربة تصدع الصخر
الاصم فلم يفعل المارد اكثر من انه انتبه وحك وجنته ! وقال
ورقة سقطت من الشجرة ! ونام ... وضربة ثانية اشد من
الاولى فقال المارد : حصاة وقعت ... ونام فلما ضربه الثالثة
يجماع قوته قال : لا شك ان في هذه الشجرة فوق عصفير تلهو
وإلا ما هذا الذي يزعجني ؟

وقد تعارف (ثور) على المارد بعد ذلك وتوافقا في اليوم
اليوم التالي فدعاه ذلك العملاق الجبار الى وليمة وقدم اليه
كأساً ليشقها فكرع فيها ثلاثاً طوالاً فما احدث نقصاً واوماً
المارد إلى قطة فسأله رفعها فما رفع (ثور) بعد الجهد إلا
احدى قوائمها وقال المارد واهله : ما انت برجل يا هذا ! انظر
هذه العجوز البالية فهل تصرعها ؟ ولكن كل قوة البطل ثور
وكده ذهب ادراج الرياح !

ولما هم ثور بالرحيل قال له المارد : لقد غلبت ايها الاله
ولكن لا تحجل ! إن هذه الكأس التي شربت منها هي البحر
وحسبك انك احدثت به جزراً ، ومن ذا الذي يا ثور يبتلع
البحر ؟ واما المردة . فتملك الحية التي تلتف حول الارض
الارض وتمسك اجزاءها ان تنفطر ، اتراك كنت برفعهم
محاولاً رفع العالم ؟ واما العجوز فهي الدهر والهرم والخلود

العلمي ولم يعد للوهم من مكان عند اجيال تؤمن بالمادة ، ولا
لابداع الخرافة من سبيل في عالم يحسب انه حقق الخرافة !
ثم لم يعد هناك من مواقف مثالية من البطولة ولا من ابطال
يتجاوزون الانسان الى ما فوق الانسان ، والى ان يصبحوا
انصاف آلهة ! بلى ! اننا قد نجد . ولكنها مواقف صغيرة
فردية لاشخاص ارهتهم القلق وصهرهم الألم وحدهم كبروست
وتولستوي وهايني وريلكه .. مواقف شخصية تتسع وتتضاءل
بقدر عمق الشعور بالمأساة وعظم الاحساس بالوجود المستعبد !
وندر ان يرتفع هذا الموقف ليصبح قريباً من البطولة كما فعل
نيتشه مثلاً حين وقف به فكره امام هوة العدم وصتيهه فمما
ترزّل ، وحاول الانتصار بخلق الانسان الاكمل (السوبرمان) .
وكما فعل طاغور الذي انتصر على عبودية وجوده بالحب ، وبالفناء
في الحب وكما فعل واغنر الذي افرغ شحنة تشاؤمه وسموم
كآبته في الموسيقى الاسطورية وانتصر على مأساة الانسان
وعلى قدره الساحق بصوفية الفن ...

ان العالم الحديث بحاجة الى شيء من الروح ، من القلب
ومن الرحمة ومن التسامي الصوفي . واذا وجدت الاسطورة
فيه فلنكي ترمز الى هذا او هذا ، على الاقل ، مفعله واغنر في
درامته المشهورة (بارسيغال) . ان الكثيرين لم يسمعوا هذه
الدرامة موسيقى . وفيها صفحات لم يكتب مثلها باخ في
الموسيقى الدينية . كما ان الكثيرين لم يقرأوا شيئاً عن قصة بارسيغال .

يروون ان الملك أمفوراس ذهب مع غوايته كل مذهب
واعنق في تتبع الذاذات مع (كوندري) الغاوية اللعوب ،
وسيطرة الساحر الرهيب (غلينغسور) رمز الشر . وقد عوقب
الملك على فسقه بطعنة من حربة مقدسة يخفيها الساحر عنده
لايشفي جرحها الا انسان طاهر !

في ذلك الوقت يصل الى قرى الملك والى قصوره شاب
اشعث الشعر يغطيه لبد القرو ، يضحك الحراس من مذاجته ،
ومن براءة الطفل في عينيه وقلبه ، ويسألونه عن اسمه فيقول :
بارسيغال . ويسمجون له بالمرور والتجوال ..

وعند حافة احد الغدران يرى بارسيغال منقاراً احمر يخوض
الوحد وقائمة رفيعة منتصبه يقوم من فوقها طائر ابيض . هذا
مالك الخزين ! ويملك الشاب هوس الصيد فيتناول قوسه
ويصميه بسهم . ولكن ما ان يتفجر الدم وتنتثر نقاطه الحمر
كالعندم ، على الريش الابيض حتى يغضب بارسيغال على قوسه
وسهامه فيكسر القوس ويرمي بجعبة السهام الى قع الغدير .
لقد لامست الرحمة لأول مرة قلب هذا الشاب البريء .

ويدخل بارسيغال معبد القصر ويحضر القداس فيه وتملكه
الرعدة فجأة حين يسمع شكوى (امفوتراس) الباكية الشقية
وينصت الى النشيد الديني الصوفي الذي يعلن مجيء البريء ذي
القلب الطاهر ، مصطفى الاله الذي يستطيع بفضل رحمته ان
يضع حداً لآلام أمفوتراس الملك .. ولكن بارسيغال لايزيد

على وعدته شيئاً . انه ما فهم كلمة بما قيل وكان يجهل نفسه فما
زاد على ان قلب في جموع المصلين نظرة حيوى ... ويأتى
حارس المعبد العجوز فيطرده من بين جمهرة القانتين !

يصل بارسيفال في طريقه الى قصر (التلاشي) حيث تسكن
(كوندري) الحسناء رمز البذخ ورمز الظمأ وتتصدى له
القانتة بمثل اغراء الطعام الشهى للجائع المحروم ولكن بارسيفال
يصمد للغواية وينتصر عليها .

ثم يأتى قصر (السحر) فينتزع الخربة المقدسة من الساحر
الشيطاني ويشير الى القصر باشارة الصليب فاذا هو أطلال !
وحينئذ فقط ، حين انتصر بارسيفال على الخطيئة وعلى الشر
يشعر برسالته وبانه المنتقم المنتظر فيلمس جرح الملك فاذا هو بريء !

* * *

إني ، مع واغتر ، واحسب ان هذا العالم الجريح بحاجة
الى قلب واحد فقط مفعم بالرحمة ، الى بارسيفال !

نهاية الاسطورة

الكثيرون منا قرأوا لغوته اسطورته المشهورة (فاوست)
ان هذا الدكتور فاوست الذي باع روحه للشيطان مقابل نعيم
جسده واستغنى عن نفسه مقابل القدرة على تسيير الكون
والتحكم بالطبيعة يصح ان ينصب رهزأ لانسان هذه الحضارة
التي تغمر العالم اليوم ما بين قطبيه وقاراته الخمس .
إن الجسد هو الذي انتصر . القانون الرياضي ، الآلة ، المادة

هي النهاية وهي الغاية التي يتهاافت إليها هذا القطيع الضال. وفي اليوم الذي تصل فيه حضارتنا الحالية (أعني حضارة الغرب) الى السيطرة نهائياً ، على المادة والى وضع العالم كله في قانون رياضي ، إذ ذاك تكون قد ادت رسالتها ولم يبق عليها الا ان تلتحق !

ولا ينبغي هنا أن أقارن بين عصرنا هذا والعصور الخوالي. ولكنني أرى ان السعادة التي يهدف إليها المجتمع البشري اليوم ، هذه السعادة المادية التي تتجلى في كل مظاهر حياتنا: من ناطحات السحاب الى طرائق العلوم ومن التلفزيون الى الافكار الاشتراكية ، هذه السعادة التي تقاس بمقدار ما في البيت من مدافئ كهربائية ومقاعد ، وثيرة وبقدر ساعات العمل والمساواة في الفرص ، هي سعادة زائفة ، وليست هي السعادة الحقيقية الداخلية ، إنها سعادة الجسد لا الروح . وإلا ، أفهذا النسيج من اللحم والدم والعظام هو فقط الانسان الذي يجب ان نهتم به ؟ أهذه الآلة الفيزيولوجية المتحركة هي أنا وأنت بكل كياناتنا ؟ لا أستطيع ان أو من بذلك لاني لا أستطيع ان انسى قلقي الكياني او أغض العين عن المأساة التي أحياها وعن توقي للمجهول وارتجافي للحب ، وعن تمردى على عبودية الوجود ، ورهبتى الدائمة من المصير . وعن المثل التي أو من بها والارادة ، ارادتي ، التي أريدها حرة حرة .

في هذا تكمن انسانية الانسان لانها هي وحدها مشكلته . ولقد كان الانسان القديم أبرع من الحديث في علاجها . ١ . لقد

عاجلها بالاسطورة رباً فاق الوهم الفنان ولكن الحضارة الحديثة
عاجلتها بالهرب منها . تناستها منذ باكون وديكارت الى رسل
وجيمس ، لانها افترضت سلفاً انه لا يمكن حلها ! ولكن هل يخمد
التناسي ذلك السؤال الملحاح في اعماق كل منا :

من أين ومن نحن وإلى أين ؟

لا يمكن ذلك ولهذا فن حضارتنا تعاني اليوم أزمة في
الضمير ، أزمة عميقة من القلق تظهر في اعلان اسبنجر نعي
الحضارة الاوروبية . وفي المذهب الوجودي في الفلسفة ومذهب
السريال واللاوعي في الفن . ولم يعد بخاف على احد انه ليس شيء
من توازن بين القوى التي اطلقها الانسان وبين معرفته لنفسه .
لقد روى غوته اسطورة زعم انه اخذها من الف ليلة وليلة ويصح
ان تكون مثلاً لانسان هذه الحضارة : هي اسطورة (غاندا لان)
الساحر الذي كانت عنده عصا سحرية يتمم عليها بكلمة فتحمل
دلاء الماء وتذهب الى النهر فتملؤها وتعود لتفرغها في حوض
البيت . ولا تكف حتى يتمم عليها بكلمة الحتام . وكان للساحر
خادم سمع مرة الكلمة الاولى فنتهز فرصة غياب سيده وهمهم
بها للعصا فعدت لازالة عملها وفرح بها الخادم الا انه حين امتلأ
الحوض تذكر انه لا يعرف الكلمة الاخيرة . وضرب جبهته
يتذكر والعصا تذهب وتجيء بالماء وتنفخ حية يتذكر ، والعصا
تذهب وتجيء . ولطم رأسه بجماع يديه يتذكر ، والعصا تذهب
وتجيء . حتى امتلأ صحن الدار بالماء . فهجم على العصا وكسرها

قطعتين فأصبحت وبالله عجب عصوين حمل كل منها الدلاء وغدتا
تملآنها وتملآن البيت .

لما عاد الساحر كان البيت قد اخذه الطونان !
لقد قالت حضارتنا على ما ارى الحكمة الاولى ولكنها ما
ترال تجهل الحكمة الاخيرة . وحضارة الجاهير والكمية والجسد
حضارتنا هذه التي نحيها لست اكرهها ولكني اريد لها ان
تكون حضارة الصفوة الفائدة ، وحضارة الكينية وحضارة الروح .
قد لا اقول بالرجوع الى الاسطورة ولو انها خصبة وغنية
ولكني اطلع الى حضارة اخرى تراث هذه الحضارة او على الاقل
تصحح اتجاهها ويكون شعارها : انقذوا الانسان . ولن تنبت
هذه الحضارة في غير الشرق ، شرقنا العربي نحن الذي رسم
للأمم الاولى سبيل اطمئنان الروح واعطاها المثل السامية .
ان علينا ان نؤمن برسالتنا هذه وبقدرنا هذا ونعمل لتحقيقه .
ان الانسان لم يكن بحاجة الى احد يلقيه عبادة المادة والطبيعة
ولكنه كان بحاجة الى انبياء يرشدونه الى طريق السماء والله ،
ولم يكن بحاجة الى أحد يعلمه الحقد والبغض ولكنه كان بحاجة
الى انسان - إله يعلمه الحب !

باريس

- في صبيحة أحد -

... « إذا زرت باريس فلا يفوتك حضور صلاة في
توتر دام » بهذا اوصته منذ كان في دمشق صديقة عزيزة . فآخذ
على نفسه تحقيق الوصية منذ وصل . وبالرغم من ان زخارف
الكاتدرائية ومآثيها وسهام قبائها واقواسها القوطية قد بهرت
من الخارج فانه ظل يعتقد ان ثمة ما هو اروع وواقع في داخل
الجدران المسودة . ولم يكن قد دخل كنيسة قط حين نقل

اول خطانا نحوه مدخل نوتردام ، صبيحة الاحد ، ترافقه ثلاث
إيطاليات حسبته كاثوليكيا وحار هو كيف يكون عند
ظنهن ؟

هناك سمع الارغن لأول مرة ، وهناك فهم « باخ » معلم
الكلاسيكيين لأول مرة ايضا . كان يسمعه قبلا على
الاسطوانات فيبقي في سطح نفسه ، وهما غائما ولحنا لاصدى له .
اما الان فقد حال حقيقة وشعورا وفكرة وحالت الالخان
المرجعة بين الاعمدة السامقة والسقوف المقدسة خشوعا عميقا
ارتجف له واهتز . وإذا قطع عليه « صلاته » التأملية شيء ،
فذاك الجرس الذي كان يقرع داعيا الناس للقيام بين الفينة والفينة !
- ذات ليلة -

في الاوبرا ، منذ اجتاز مدخلها أحس بالعربة ، بل شعر
بغربة الموجودين جميعا وبينهم اولئك اللواتي ما اتين إلا
لعرض ازيائن في الجو النخم ! إن زينات الدار في سلامها
الرخامية ومائيلها وثرياتها وزخرفها اللامع المذهب (على طراز
لويس ١٤) لا تنسجم مع هذه الازياء العصرية التي تروح وترجع
بين القاعات هذا الجو الباذخ المترف يحن الى الذين بنوه من
ذوي الشعور المستعارة ، والصدار المذهب والذاتتلات المطرزة
حول الاكف ، والحرير الفضفاض .

حضر حفلات الاوبرا مرات ومرات لان هذا اللون من
الفن قد راقه . صحيح انه قد اضاع الحفلة الاولى شارد العين

ولكنه بالرغم من أنه لا يمنح الكثيرين ما يمنحه كل جديد من
لذة ، بالرغم من انه يحتاج في تذوقه الى ما يحتاجه تذوق الحمة
والموسيقى الكلاسيكية والمخدرات من ادمان وموران ، برغم
ذلك فسرعان ما قبلت نفسه هذا الفن واخذ يلاحق بشغف
الظامى تلك الساق التي تدور ثم تنزلت من فوقها يد وشيعة
ما تزال تنسحب ، بضراعة ، حتى الفم ثم ترتد مهتزة في الفضاء
كموجة اليم ، ويفضي من بعد ذلك الطرف ، وتبكي الموسيقى
... أليست هذه الصورة درامة كاملة ؟ أمن الضروري الكلام
مع هذه الحركة الناطقة وتلك الاشارة المعبوءة ؟ أليس على الفم
أن يصمت ما دام الجسد بكل جارحة فيه يتسكلم ؟

خيل إليه مرة أنه في لحظات سعادته هناك متعدد على حياة
أحد السعداء فسارق منها لحظات ليست له . وخيل إليه مرة
اخرى انه يتعرف لأول مرة إلى نفسه التي كانت مخدرة في بلده
كبعض ذوي الدم البارد من الحيوان في الشتاء فهي اليوم
تستيقظ على جوها المنشود الذي يدب فيها ديب الربيع في
النسغ الخدر الهامد .

كان يشعر ببقية اللحظة التي هو فيها فكانت كل شيء
عنده . وكان يفتقر في إنفاقها فعل الشحيح المروزي . وكان
يشتهي الا تمر الزواني ولا التوالث قبل ان يمتص كل ما فيها من
رحيق . وتندازه في اللحظة الواحدة الهاربة عاطفتان : الحرص

على التي تمر والاشفاق على التي فاتت . كان هذا هو القلق
الوحيد الذي يشغله ... ولكن الأيام كانت تتسرب راكمضة
من بين اصابعه وعيناه في أثرها تنظران .

- في ليلة ضاع منه تاريخها -

في تلك الليلة ولم يكن قد مضى على تعرفه باحدى فتيات
الجامعة اكثر من ساعات اخذت هذه الفتاة بيده ويهد صديقه
الى مقهى « الوجوديين » قالت له : « اني أو من بباريس ،
بهذا الينبوع الحصب من الافكار الذي لا تضاهيه عاصمة
اخرى ... انك لا تزال تجد في باريس جديداً كل يوم ولا
تزال تلقى لهذا انصاراً يؤمنون به ثم لا تزال تجد بين الانصار
من يحول الفكرة عملاً ويحيها بكيانه كله ... وبدعة الحي
اللاتيني اليوم هي « الوجودية » ، ومعظم شبابه يطوفون
كفراسات الربيع حول « سارتر » .

والنفقت فتاته اليه بعد ذلك ريانة العين بالتساؤل وقالت :
« ألم تسمع » بالزازر « أنصار الوجودية ؟ ألم تصبح وجودياً
بعد ؟ ألسنت تحب ان تستمع الى سارتر ؟ ألم تر مسرحيته
« الأيدي القذرة » في مسرح انطوان ؟ أقرأت شيئاً لغابرييل
مارسيل ؟ ألسنت تكره مثلي بعض أفكار كبير كفارد ؟ أيها
ترى أشد اصالة . وجودية نيتشه أم وجودية هايدغر ؟
وأرهقته طول الطريق بالاسئلة ، فكان يجيبها تارة باقتضاب

واستفهام واخرى بانطلاق وعلم ... لقد كان وهو يدور مع
دليلته بين مقهي (تابو) و (الفلور) و (كلوب سان جرمان)
يغمره الشعور بانه قائم في قطب العالم وكأنما تيارات الدنيا
الفكرية تندفق سهلة المزال عند قدميه !

ذكرت له ان « الزازو » (الوجوديين) يهبطون كل
مساء مقهى الفلور بي (سان جرمان) كما يهبط سرب العصفير
في الحقل المحروث في اوائل الشتاء ... إلى الفلور !
دخل المقهى متصنعاً قلة الاكتراث ونظر في الناس نظرة
جامدة عرف كيف يخني وراءها كل الفضول الذي يدفعه .
وجلس في الركن ليعفوس بالوجوديين الذين يملأون المقهى !
انهم ليسوا بحيوانات غريبة ولا بأثرفني مدهش ولكنه كان
يراهم من خلال افكاره أناساً غير الناس وشباباً غير الشباب .
انهم مخلوقات لم تضع حاجزاً فيما بين افكارها واعمالها ولم
تعترف بمواضع المخلوقات الاخرى . انهم صنع انفسهم ! كان
في غمرة من تصوراتهِ حين رأى الناس يتلفتون نحوه ونحو
رفيقته ورفيقه ، ولم يكن بحاجة لكثير من الملاحظة ايلاحظ
أنهم لم يكونوا يتكلمون الفرنسية وإنما يتبادلون الاسئلة
بالانكليزية وانهم ... أوه ! كلهم غرباء مثله جاء بهم نفس
الفضول الذي جاء به وحسبه وجوياً كما حسبهم ... اما
الوجوديون ... فلم يكن لهم هناك وجود !!
بعد منتصف الليل كان صاحبنا يتبع فئاته الى (كلوب

سان جرمان) ليشهد الوجودية في مبادئها وليقارن بين الوجودية الفكرية التي يقرؤها والوجودية « العملية ؟ » التي سيشهدها وتوقف قليلاً قبل ان تسمح له نظم النادي باجتياز باب الناعة التي امتلأت بمجموعة غريبة حية متنوعة من الفتيات والفتيان : هذا الذي جلس بقربه كان ذا حلية شقراء قصيرة وقميص مهمل الياقة مخطط بالجرة ، وتلك التي انكمها الرقص فاستراحت الى صدر رفيقها ذات شعر غلاني وسراويل مرفوعة الاكمام، وهذه الفارعة القامة التي تدخل حديثاً الى الصالة تلقي كيس حوائجها عن كتفها وتجذب فتى شغلته الكأس الى الرقص . . والجو محموم بموسيقى الجاز ورقصة « السوينغ » (الرقصة الرسمية للوجوديات) لا تنقطع وفي الارجل عريضة وفي الشفاه حمى وفي الاجساد اهتزاز عنيف وفي العيون شرر ولا مبالاة . . . هذه ليلة « وجودية » استمرت الى الصباح .

وقد عرف صاحبنا طلوع هذا الصباح من تسلل الازواج والافراد من الصالة في كلل وهدوء . لقد وقعت عين احدهن عليه وهي ترمي كيس حوائجها على كتفها ثم تنطلق في طريقها . . . كم ود لو يكون له كيس حوائج هو الآخر لياقيه على كتفه - كما حمل السيد المسيح صليبه والفتاة كيسها - وينقل بعض الخطى مثلها الى حيث لا يدري ! . .

- في ظهيرة من آب -

لا يذكر انه كان هام في غابة بعد ، أو دغدغ مسارب
الشجر في حنايا بلاده فلما وجد نفسه تلك الظهيرة في غابة
فونتينيلو - عن غير قصد - غرق فيها وانطلق يركض
كالطفل أفلت من يدي أمه . كان يبعثر الورق المصفر تحت
قدميه وبطرب خفيفه الجاف ، ويعغربه العمق الضائع بين
الاشجار ، فيمد يديه لاحتضانه . ولقد يرم به صاحبه وهو
يراه كالعزاة الشريد يعد الاشجار حيناً ويانقط الاغصان الميته
حيناً ويهوى ان يتوك الجدد من الدروب ليشق لنفسه بين
داني الاغصان درباً ... أما هو فكم ودلو يهدأ في حضن
شجيرات العليق هناك أو يضيع في دغل من الدغال فينسى نفسه
وينساه الناس حتى هذه التي تناديه هنا بقربه وتلك التي تبكي له
هناك في بلده !

- في يوم أحد -

أحب أن يتمشى . لم تجتذبه تلك الشقراء الناعمة التي حادثته
في الاتوبوس فيتم طريقة معها . ولا استطاع الرفاق اغراءه
على مرافقته للرقص في ضاحية روبنسون . ولكنه اطاع نصيح
صديقة انكليزية أوصته أن يتمشي في قلب باريس (على
دعواها) أي ما بين ساحة الكونكور التي تجسد لندن باريس

لعمري وبين قوس النصر . ولم يشأ أن يقول لملك الصديقة أنه يعرف لباريس قلوباً كثيرة موزعة ، أو أن لها من القلوب بقدر ما لها من العشاق ، وإن كل ركن منور منها على استعداد لأن يكون ، في أعين الكثيرين ، قلباً خفياً حبيباً ...

ذهب على كل حال إلى ساحة الكونكورد ووقف فيها والآخرى أن نقول وقف في جانب ، بل نقطة من أركانها ، يتأمل الميدان العظيم . كانت الامواه تندفع ، كجبال النور متلوية متكسرة ، مزبدة حول التماثيل التي تملأ مجرتي الساحة . وفي الوسط كانت المسلة الفرعونية السمراء تفتصب في الفضاء أرسق قواماً من غايات « مايول » و « الفولي بيرجيير » . ولعلها كانت تشعر بغربة « الوجه واليد واللسان » هناك فهي تتطلع ، عبر الضباب ، إلى اليد التي نحتها منذ أربعة آلاف سنة ، وإلى الموطن الذي ضمها ذلك الدهر الطويل . هذا بالرغم من أنها مطوقة من أركانها الأربعة بأوابد باريس : بالمادلين من الشمال وبمجلس النواب من الجنوب وبالتويلري وحدائقه من الشرق وبالشانزيليزه على امتداد الطرف من الغرب ...

أتم طريقه في الشانزيليزه مع سيول البشر والسيارات الزاحفة . كان يتعثر في كل خطوة بالجمل ويتعثر الجمال به . وكان يروي ذوقه البديعي من ثوب فتاة تنتظر الاوتوبوس على الموقف ومن واجهة مخزن نسقت فأبدع تنسيقها ومن كل تمثال يلقاه في ركن الشارع (وما أكثر التماثيل !) ومن حديقة

الرصيف اخرجت الورود فيها اخراجاً فنبئت هذه الزهرة
بجانب تلك ، وخولف بين هذا اللون وذاك ، ومن الابنية
لا تجد فيها نابياً ولا ثقيلاً ... كان يجد الفن مبذولاً على قارعة
الدروب حتى في نظرة تلك الغاوية التي ابتسمت له في رقة ثم
نزات في نفق المترو على ريث من الخطو وانتظار !

وصل أخيراً القوس الكبير الذخم في نهاية « الشانزيليه » :
قوس النصر ، ووقف أمام الشعلة الخالدة الملتهبة فوق صدر
« الجندي المجهول » لا يدري فيم كانت الشعلة تهتز وتتلوى ،
وقد تبعثرت من حولها نتارات من الورد . لم يتأكد له بعد أهى
نثرت إجلالاً لذلك المحارب الدفين أم كانت تحية واعجاباً
بآلاف السارحات على رصيفي الشارع العظيم !

— ذات يوم —

زار معرض (بيكاسو) وكان واحداً من ملايين الزوار .
ووقف مع الواقفين يتأمل . إنه يهوى (غويا) و (سيزان)
و (فان كوخ) ولقد جاء هذا المعرض يستطلع فناً جديداً
طالما أرققه فهمه . ولعل همه كان أن يقرأ ما في العيون الاخرى
التي تتطاع معه الى اللوحات اكثر من أن يقرأ تلك اللوحات
الصاخبة اللون المستعججة الطلاسم أمامه . ولم يجد غضاضة على
نفسه على سؤال بعض المتأملين : ماذا يفهمون ؟ وكيف

يفسرون ؟ ألا يفضلون (براك) و (سينز) أوليست ريشة
(غوغان) أقوى ؟ أوليس (فان كوخ) أعمق تعبيراً ؟
أمن الضروري أن يبرز اللاوعي فيمسك بيد الفنان دون
الوعي ؟

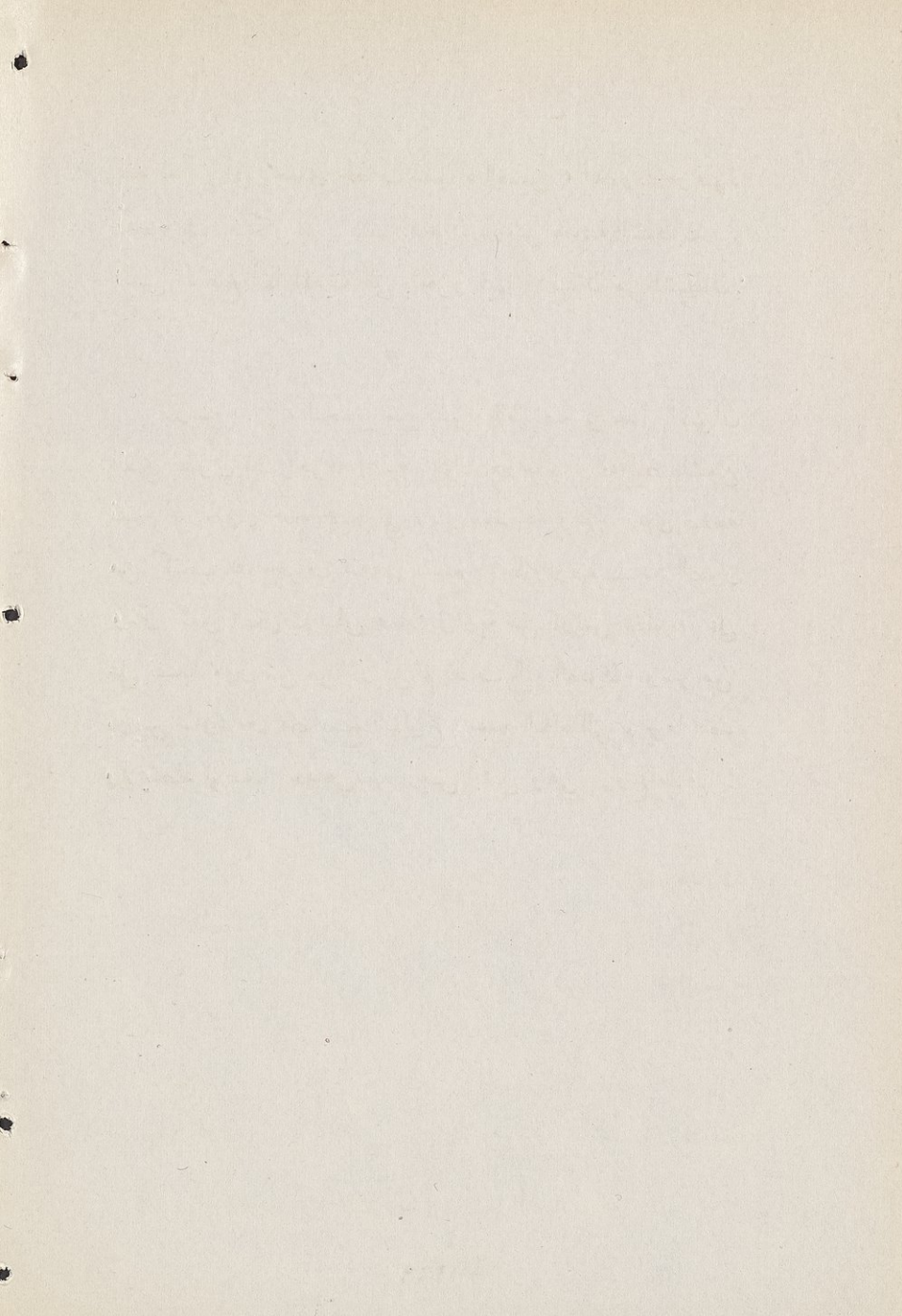
ولوحة « رأس امرأة » ذات الوجه المصادف والعينين على
شكل معين والفم الاخضر . أهى توحى لهم بشيء ؟ أراء
هذا الركام من اللون والزيت عبقرية ؟ . كان أجمل ما سمعه من
الاجوبة كلمة الشيخ الذي أدار طرفه في القاعة بسرعة كأنه
يلملمها في لفحة واحدة ثم أجاب بعد صمت قصير : « ربما » إنه
كشف بذلك عن أعظم ما في نفس الامة المتكونة من ثقة
بعقرياتها .

- كل يوم -

كان يحيا الحرية هناك ويعيشها في كيانه كله . التقى بها
في عرض الطريق على في حبيبين ملتصقين لا يلتقي إليهما عابر
بطرف ، ونشقتها في الجو الذي يرف فيه المرء رفاً كما لو افترق
الضغط الجوي ؛ ورآها في كل وجه التقى به فلم يسألها من
أنت ؟ ولا ماذا تفعل ؟ وكان اسمه الصغير كافياً مع الجميع
لربط اوامر الصداقة . ولمسها في آلاف المذاهب والافكار
لا يسخر بعضها من بعض ولا يحقد ذو مذهب منها على آخر ..

لقد تذكر في إحدى لحظات شعوره العميق ، أهله وبلده وقيود
أهله وبلده فبكى ... إنهم يدعون باريس مدينة الشيطان ..
أليس الأصح أنها المدينة التي يتجور فيها الانسان من الشيطان؟

باريس ! إنه ليخجل من دعواه العريضة في هذا العنوان
الذي يطوي بين احرفه الخمسة كوناً متروفاً . وانه ليضحك من
نفسه انه حاول جمعه جميعاً في صور معدودة وعلى مدى صفحة
من كتاب . هو يعرف انه مهما يتسع الاطار وتنوع عدد الصور
وتتراكض الكلمات تبقى هناك زاوية من باريس مطوية على
على نفسها ، وركن من باريس لم تدلف اليه العيون ، وسر من
باريس شارد بين مصابيح الشارع . هذه البقايا التي لم يرها أحد
ولم يتصد لوصفها أحدهي سر باريس الجميل وهي أروع ما فيها !



عام وعام

بيننا وبين الثانية الاولى من عام الغد* .. عشرات معدودات
من الدقائق ، نعلمها من الدقائق القليلة في الحياة التي نشعر
بمرورها ثانية ثانية ... ولكن في مثل ركض الهارب من
الامر أو الجواد الجموح تلتسه السياط .. ولا ادري اذا كان
الكثيرون مثلي يجاذبونها المدى ويعتصرون شفافها الهاربة كما
يهصر الخمور ثملة الكأس الاخيرة ، يود لو يكون وراءها قطرة

(١) اذيعت حديثا في آخر مساء من أمسيات سنة ١٩٥٤ .

اخرى خبيثة ! فاني اشعر احيانا كأن بين لحظات الزمن وبينني
همسا واسراراً ومساواة سوداء .

ولقد تزورني اللحظة فتتغطى في عروقي ، لاتبرح ..
وترحمها اخوانها ، ويتخطونها في الزحام ، وهي قتلت ابدأ ..
ولقد ابقى على هامش الزمن ، برهة لا ادري مداها ، ارقب
اللحظات وهي تنبع ، امام أنفي ، من العاء البهم لتعود الى العاء
البهم .. وكأني قد انتزعت من السلك الابدي واقبلت ابدال
الغمز مع (الارباب) . اتذوقت مرة هذه النشوة البكو ؟ ان
فقاء القلوب وحدهم محرومون منها ، الذين لا يرون الا بجمعهم
العظيمة فقط لا يعرفونها . ولقد طالما وثبت لابي العلاء شيخ
المعرة وانا اقرأ في لزومياته :

الا انما الايام ابناء واحد وهذا اليالي كلها اخوات
كل شهوري لدي واحدة لاصفر يتقي ولا رجب !!
لقد طالما رثيت له لانه لم يستطع ان يرى في اللحظة
الواحدة الدهر الاطول ، لم يستطع ان يدرك التطور الخلاق
في الثانية الهاربة !

واللحظات الاخيرة من العام هي عادة من هذا النوع
الحصب من لحظات العمر ، يجتمع فيها كالبيادر الكريمة ،
كالذنان التي تعد بالكثير ، حصاد سنة من العمل وآمال سنة .

* * *

... يدرج النظر كرة اولى في عام كامل مضى .. ومن

عادة الانسان دوما ان يفتش مخزن الذكريات في رأسه ، ان
 يستعرض الماضي بين فترة واخرى ، في مثل راحة الحادي يهدأ
 من الغناء لينظر أنى بلغت الفلة ورائه ، ماذا كان هذا العام
 المشيع ؟ : عدة مئات من ايل ونهار ام لآت حتى الفيص ،
 بسنابل سالت بها الحقول ، وسلمع ركضت بكل طريق ،
 ومعادن طاوحت وقع المطارق ، بآمال خنقتها الفص وسعادة
 اغفت على الجفون ، بنجيام لاجي ، ماتزال ترجف ثقبها الريح
 الباردة ، ووساوس تاجر ماتوازنت في اوراته « من » و« الى »
 وآلام عاشقة مزقت العطور والشرابين ، وسجين يخط على باب
 زنته خطا لكل يوم يمر .. امتلأت بمبدع يسكي ، ومحرات
 يأكل من الارض وتأكل منه ، وابذية تنجو كالفطر جداراً
 على جدار . وعالم يتخبط من الفلق والدم ، كمن يتخبطه
 الشيطان من المس ، بين مراکش وكوريا وبورما
 وليك ساكسس .. وسلم يعوي ورصاصة تعصف بمحدر ..
 واشلاء وسبائين .. وساعي بويد وطبيب وشاعر وجندي
 ومجنون .. الوان من الحياة ماتكاد تطوقها فلتة قلم ، اضطربت
 بها ، بين كانون وكانون ، هذه الكرة من الطين التي تدرج بين
 كواكب الفلك ، مستقر لها او الى غير مستقر .

وكما تصغر الاشياء على البعد كذلك تصغر الذكريات :
 ونضحك اليوم ، لحظات ، من توافه الآلام التي مرت بنا

وسخافات الخلد والمجون فاذا العام الماضي كله قبضة من كلمات
فرغت حتى الجفاف !

* * *

ويدرج النظر كرة اخرى في عام كامل مقبل .. انه الغد
الذي لا سبيل اليه الا حين يأتي بنفسه الينا نحن نستقبله بابتسامة
العبد وكلنا سؤال راجف !

عيد ؟! بآية حالة عدت ؟ يا عيد !

بما مضى ؟ ام بامر فيك تجديد ؟

واسمح لنفسي ان انكر على شيخنا ابي الطيب بعض
بيته هذا . فلست اؤمن بهذه الحكمة التوراتية ان : « لا جديد
تحت الشمس » واكاد ، لولا حرمة التاريخ وثقله اقول بالعكس
ان لا قديم تحت الشمس . لا قديم ! فالحياة تنبض كل لحظة
بجديد . بعطر مامر بيسال زهرة وفكرة ماعصفت بتلب ،
ومجهول ما استسلم لعين . ومنبلة وعاطفة ولحن .. وكم وددت
بقطع الاكف ، لو حبيت حمامة منجم وعين نبي ، وتحولت
هذه الآلة اللاقطة امامي الى كرة من البلور ترق فيها اطياف
الغيب ، اطياف غد وبعد غد ، لاقرأ ماسطر في اللوح المحفوظ
من القدر .

ان احدنا ليستطيع الففز في المكان ، لاي مكان ، اما السفر
في الزمن ، اما تحظى الاحظية ، فعبث من دعابات الخلايا
والاعصاب . ولا مناص لمن اسمنت جسيمهم فلا كهة الارض

من ان يظنوا على تراها ، تراها ايضا . ان المفكر (ويلز) لم يبع
بامرار الآلة التي مكنت احد ابطاله من مغادرة حجرة في
البعد الرابع ، الزمان ، والفرار ، الى المستقبل !... وتلك
الجنبة التي زارت في قصص الطفولة ، احدى الفتيات واعطتها
خيط الحياة ، يظهر انها ليست على استعداد لان تزور ، مرة
اخرى ، احداً منا فتعطيه الخيط الذي يستعجل مر الالي الى
والاحداث ويقودنا في لحظات الى الشيفوخة الاخيرة . ولن
تقبل الارض ان تعجل دورتها فتختصر اليوم كله في بضعة
ساعات ... ولن يكون من انبياء بعد ..

سنظل دوما على باب الغد ، كالسائلة على باب الهيكل
المهجور ، لا الباب ينفتح ، ولا يدها ترجع مملوءة بعبية .. ترى
ماذا يجنيء العام المقبل ؟ ان بعض السنين ، كبعض بني
البشر ، منحت القدرة على ان تفرض نفسها في التاريخ باحرف
من فار او زابقي فلا تنسى ! فهل يكون عام الغد من اعوام
التاريخ ؟ هل ينتصر فيه الانسان على السرطان وهل يكشف
مر السعادة ؟ وهل يهزم مارس ، إله الحرب ؟ وهل يأتي الى
الوجود بمقري ؟ هل يضرب الحصار على القمر أم يحو نابليون
من التاريخ ؟

وبعض السنوات عدونا ساعاتها عداً . وما كان أصعب
التعداد وما أدمى ! أترانا سنعد ساعات العام الوليد مع دقائق
قلب الأم والحبيب والجريح ، اتخبط حمامة السلم البيضاء في

شبكة صيد ؟ وبطل المكروب أقوى من الانسان ؟ وتبقى
ظلمات النفس اكثر سواداً ورهبة من تيه الجحيم ؟

قرب بيتنا نافذة تشكو للقمر ، وفي خيمة على الارض
المقدسة ، رثة ينث السل فيها سمه ، وفي ركن من السجن
قلب مثلي يتالم ومثلك ، وفي بعض شعاب الأرض عائلة آمنة
ترحف إليها القنبلة ... وبذرة حية في التراب تنتظر الربيع ...
فهل تبقى النافذة والحيمة والرثة والعائلة والبذرة حيث تركها
عام أمس : لا يأس ولا رجاء !

لست أدري ولكنها خواطر تأبى إلا أن تفعم هذه
الدقائق الاخيرة من العام بالحب والمشاعر الحية ، وتأبى إلا
تترك الآمال ، حرة الجناح ، « عصائب طير نهدي بعصائب »
وبسمات ، تضج بكل عين : بين معسر يرجو الفكك ، وقيد
ينتظر ان يفته الصدا ، وغريق فر حتى خيال الشاطئ من
خاطره ، ومزارع يصلي للمطر ، وسجين ولاجيء ومتسول
وعالم . ألسنت تراهم كل هؤلاء من حولك كما أراهم من حولي ؟
إني لا أستطيع ان انساهم لانهم يعيشون في قلبي ، قلبي هذا
الذي أضحي كسفح الجبل مهوى سيول ومرتع فؤوس
ومنبت عليق وسنابل وزاوية كوخ ومحراب ناسك !

* * *

بعد عشرات معدودة من الدقائق سيلتقي عام وعام على

شفة تلك الثانية الاخيرة أو الاولى ، التي ينطفىء فيها النور
وتنفو بها الى كل لهاة أمنية ! ويتجمع في تلك الثانية ثقل عامين
جميعين ... انها القطرة التي بطفح منها الكأس ، كأسى
وكأسك ، لثلاثمائة وخمسة وستين يوماً آخر . شعرة بيضاء
جديدة ، خطوة نحو الفترة أو الهرم . تاريخ يتواكم . . . أخفاه ؟
أنتمنى أن تقف بنا عجلة الزمن لا تريم ؟ أنتمنى أن تتجمد
هذه اللحظة - السنة ! أن الشمس لم تقف الا في الاسطورة
ليوشع . أهاب بها وهو يحارب فتويث لانغيث حتى انتصر . .
والشباب الخلد كان منية الناس منذ كان شراب (النكتار)
سراً من أسرار خلود الآلهة لدى الاغريق حتى زمن
فورونوف . ولقد حلق الدجالون والحامون والعلماء ، على
السواء ، بهذا الحلم ... وعيشاً مار كضوا وراءه . ان البابا
اينوسنت الثالث طلب ان ينقل الى عروقه دم ثلاثة شباب لعله
ينتصر على الهرم ! .. ولكنه ما لبث أن ...

والعمر ليس لحظة تحمل حل أخرى ؛ من لحظات الزمن
الآلى الذي نقيسه بالثواني والثواني أو بالساعات والسنين ..
ان الزمن المنساب في عقارب الساعة نوع من التجريد العقلي
نصطنعه لما يحمل من راحة وبساطة ونتمثله تمثلاً هيناً على
شكل خط مستقيم : كل لحظة فيه تقابل نقطة من نقاط الخط !
... ثمة أزمان أخرى هي ألصق بنا من هذا الزمن الفلسفي .
وهي العمر الحقيقي لاننا نعيش فيها ونعيش فيها : هناك الزمن

الفيزيولوجي الذي تنمو فيه عضوية الانسان وتشبيخ ، وهناك
الزمن النفسي الذي يسيل في أغوارنا ويلون شعورنا لوناً بعد
لون إنه هو البعد الرابع بعد الطول والعرض والسمك فالانسان
يمتد في الزمان امتداد جسمه في المكان وهو دوماً تاريخ يصور ،
وشخصية قيد الخلق . وإلا فما معنى أن تكون دقيقة الانتظار
ساعة وساعة الحب لحظة عابرة ؟ وما معنى أن نشعر بالضيق تارة دون
مهر ، وتر كض على شفاها الاغنية تارة أخرى دون وتر ؟ !
العمر الحقيقي هو هذا العمر الدافق في أعماقنا سعادة وقلقاً ،
وثورة ودمعة ، ومائة من ألوان آخر .. وكلم من الحكمة
في هذه الحكاية التي يروون فيها أن غريباً قدم بلدة فواجهه عند
مدخلها المقابر . واخذت عينه كتابة على بعض الشواهد فدهش
ان يقرأ عليها : « فلان العالم الشاعر .. توفى وله من العمر سبع
دقائق » والتفت الى اخرى فوجد عليها اسماً آخر لبطل من
من أبطال المعارك . توفى وله من العمر نصف ساعة وتلفت
مينة ويسرة فوجد من ذلك الاعاجيب وتعلق بأول عابر في
الطريق يسأله سر الخبر : إنهم يعتبرون لحظات السعادة فقط
عمرهم الحقيقي !

وهناك أخيراً بين أزمان الانسان ما نستطيع أن نسميه
بالزمن الخصب . إن حياة الكثيرين منا ليست اكثر من يوم
واحد مكروور ... عدد كذا من المرات ! والعمل الرتيب
المكروور ، نفى للحياة المبدعة وانحدار الى آلية الغريزة . إنا

لنستطيع ان نضيف الى عمرنا اعماراً متوعة بما نحمله على الالفة
من الحصب ، بما نملؤها به من عمل ولون وخلق . ان في اهاب
كل منا امكانيات لا حصر لها تسقط كالقشور الجافة كلما تقدمنا
في السن دقيقة . وهي تموت ، وتنتحر كلما اخترنا الطريق
الجدد المعروف ، الطريق الفراغ السهل ، وتركنا شق الصخور
الى شعب ما عرفته بعد قدم ! ...

وما ينطبق على حياة الفرد ينطبق على الشعوب ، واعمار
الامم لا تناس بمقدار جذورها في التاريخ ، وما غزلت
العناكب من حولها ، ولكن بمقدار ما قدمت لسوق
الانسانية من عمل مبدع وغنى في الروح . وكذلك فحياة
الانسانية اعمق واوسع مدى من كل نكسة . انها لا تفشل في
مكان أو عام إلا لتحقيق نصراً اعمق واوسع في أمكنة اخرى
واعوام آخر . .

هذه سنة الكون وهذا آيينه .

* * *

إنا نفتتح العام بعيد ... بلى ! فالمهم أن نبدأ الحياة كلما
وثلت بنا أسبابها بأمل مبتكر ودفقة نشاط جديدة . المهم أن
ان تنفض الورق المصفر في انتظار البرعم الوليد ، أن نقابل
الغد بقلب يطفح بالتفاؤل وإن لنا للشقة الكبرى بمستقبل
الانسان . انا لرى انه برغم كل شيء ، يزرع الحب وينمو

الزيتون ويغني شاعر ، ويندحر ظلم ، وتفتتح في كهوف
المجهول زهرة ... بل انا لموقنون اكثر من هذا ان سترتفع
البيوت اكثر مما ارتفعت ، وسينضج الحب كما لم ينضج من قبل
وسوف تثقل الكروم المعروقة اليوم بأطيب العناقيد في الموسم
المقبل . لا بد من أن تنتصر قدرة الحياة المبدعة .

ومن عام الى عام
لبنة أخرى ترتفع في الكيان الانساني ، وخطوة أخرى
فحو ما فوق الانسان .

الرجوديون

الرجوديون ، لا أستطيع ان أقول اني عرفتهم . لقد
لقيت عوامهم كالفراس الضال ، فتيات بشعور غلمان وفتياناً
يقمصان عذاوى يلاؤن ارضة شارع « سان ميشيل » ومقاهي
« سان جرمان » . كما لقيت الملوك ذوي التيجان منهم وذوي
الهالات الذهبية على صفحات الكتب وبين احرفها السوداء .
كان الاوائل يرطنون بـ « الآرغو » ونداء العامة ، بينما يعض

الآخرون اعقد المصطلحات الفلسفية ، وفيما بين هؤلاء .
وهؤلاء ترتبت لدي الاجزاء والنتف والتأمت في صورة عن
الوجودية ، لا ادري مدى قربها من الحق او بعدها عنه ،
ولكنها حبيبة الي لانها من صنع نفسي لنفسي ، ولانها
وجوديتي أنا .

وانك لتضل إن شئت معرفة الوجودية - على الطريقة
الكلاسيكية مبتدئاً بتعريفها . فان اصحابها يفضلون التعبير
غير المباشر عن الفكر : يفضلون عرض آرائهم في قصص أو
درامات ، وفي يوميات خاصة وكتابات تردد صدى الحياة
الشخصية « ان الفكر الوجودي لا يمكن نقله من شخص
لآخر » « وان الرغبة في تجنب التعاريف هي دليل الوصول الى
المفاهيم الوجودية ، هكذا يقول مبدع الوجودية الدانمركي
كيو كغورر .

ولك بعد ان تغرق في عمدة الافكار وسراها ، أو تلف
في تيه بني اسرائيل في انتظار المن والسلوى ، أو تحمل مصباح
ديوجين في انتظار التفتيش عن الفكرة الاولى وهي
بجانبك ، لك كل ذلك ، ولكنك لا تستطيع الخروج بشيء
ما لم تمسك في طريقك بيد احد الوجوديين ، والمالوك منهم
خاصة : فتقرأ « دم الآخرين » لسيمون دوبوفوار أو « ما هو
الميتافيزيك » لهيديغر أو « الكائن والعدم » لجان بول سارتر .
وما اصعب الصحة ، وما أوعر الطريق ! ولا تخرج بعد هذا

العناء كله بالوجودية « كما هي » ولكن بوجودية شخصية ،
خاصة بك . فثمة مذاهب وجودية بقدر ما هنالك من وجوديين .
بل نخيل إلى أحياناً أن ثمة وجوديين كثيرين ولكن لا وجودية !!
واحد تلاميذ هيدغر هو الذي وضع هذه النكتة على لسان
استاذة . « لقد انتهيت الى قرار ، ولكني اجهل فقط حول
أي شيء ؟ » !

إن الكثيرين يضعون أيديهم هنا على مطالع « العدمية »
(النيهيزم) في المذهب الوجودي هذه العدمية التي تتجلى لديهم
بأشكال ومبادئ أخرى مختلفة تجعل من الوجودية في نفس
الوقت تشاؤم العصر و ارادة الحياة فيه معاً .

ولست هنا في صدد تلخيص الخطوط الكبرى للمذهب
الوجودي ، والا كان علي ان أذكر موقف الوجوديين من
الوجود ومن الانسان ، ومن الله ، وكان علي ان نعرض الى
لذات الماركسيين لهم وخصام المتدينين منهم مع الملحدين ، ولكني
اكتفي فقط بالاشارة الى هذه الخاصة التي تجمل المذهب الوجودي
واسع الوفاض يتقبل التناقض دون أن يضيق بها . ويترك في
الصميم نوعاً من التناقض المحض الغنيف لا يدرك مداه الا من
مارسه وعاشه . إن الوجوديين حين يجعلون الانسان من خلق
نفسه بنفسه لا يجعلونه صليبه فقط الى حيث يصلب ، ولكن
يتروكونه في عزلة قاسية لا تحتمل ، ويرمونهم أمام المأساة
وجهاً لوجه !

وليس تاريخ الوجودية بمحدث ولا بغض العود ، فسلالة الوجوديين تبدأ بسقراط (ويكاد هذا الأب للفلسفة يكون « الجراب » الذي يتسع لكل شيء) وينلوه في القائمة افلاطون ثم يأتي عدد من الصوفية المسلمين (لا يعترف بالطبع عليهم وجوديو الغرب) ثم يتصل النسب بعد هذا (بديكارت) ، و (كانت) كل منهما في نطاق محدود الجوانب ، فالاول في الاسس التي اثبت فيها وجوده ووجود الله ..

والثاني من حيث ثورته المذهبية وتمهيده فيها للنشأة الوجودية ولجعل ظهورها ممكناً . وبعد ذلك التمهيد الطويل كله يظهر المفكران : كيركغارد ونييتشه ليضعاً أسس المذهب الجديد .

وبالرغم من بعد الشقة - ظاهرياً - بين الفيلسوفين ، وبالرغم من انهما ابدعا كلا على طريقته مذهبي الوجودية المتميزين : المؤمن المسيحي والملاحد ، الا ان تشابهاً عميقاً جداً يربطهما ويعطي صوت كل منهما صدى وطابع صوت الآخر . وتعاون أخيراً كثير من الكتّاب والمفكرين على إيضاح هذا المذهب ودعمه كالروسيين شستوف وبرديائف والفرنسيين كارل جاسبر وغابرييل مارسيل . وقد ظهرت الوجودية في فرنسا ظهور الغزاة الفاتحين سنة ١٩٣٧ على يد (جان زوال) إثر همود المذهب البرغسوني أو خفوت بريقه . و انت إذا استمعت اليوم الى الضجة التي تثيرها بحالة

«الازمان الحديثة» او الى «سامدي - سراو» و «كومبا»
 والى الكتابات التي تزعمها بعد الحرب الاخيرة بقوة أدبية
 واضحة جان بول سارتر «بابا» الوجودية الملمدة ، أو حضرت
 دوي المحاضرات الوجودية في القاعات واركان المقاهي وفيما بين
 السوربون وسان جرمان ، أو رأيت ذلك الشباب المأخوذ
 بالبريق الأدبي السحري لهذا المذهب الذي يحاول لحد كبير
 تحويل المشاكل الميتافيزيكية الى مشا كل نفسية ... إذ اتبعت
 هذا البجران شعرت بان القوم يحاولون ان يرفعوا المذهب
 الوجودي الى مرتبة المذاهب الفكرية الكبرى التي تعطي
 العصر صبغته النهائية . وإذا عربرد من هذا الجانب الشيوعيون
 وقابلوا بالصفير هذه المحاولة او غضب من الجانب الآخر وجال
 الدين وثاروا (رغم الوجودية الكاثوليكية التي يقدمها لهم
 غابرييل مارسيل ، والبروتستانتية التي ابدعها كيركغارد) فان
 الجهد ما يزال يبذل والأسس ما تزال توضع للاحتفال بادخال
 هذا المذهب نهائياً الى قبة «الجامعة» وتكريسه مذهباً
 معترفاً به ؟

وبعد فهل استطعت أن أدلك على الوجوديين أو أعطي
 فكرة عابرة عنهم ؟ لملي أنا نفسي لم اعرفهم بعد ، ولعلي لهذا
 السبب ذاته قبلت الخوض في الحديث معهم ؟ أسمع بصبي

القريبة الذي تحدث عنه أوسكار وايلد ؟ لقد كان يعود كل مساء
الى الساحة فيتحدث لاهل قريته عن جنية الشاطئ التي رآها
تخطر على الرمال مع الشفق وعن عرائس البحر التي تدفع
الموج وترتمي على الزبد. كان هذا دأبه كل مساء حتى كان يوم ،
وتبدت له جنية الشاطئ ، على الشاطئ ، بكل عري - اووردها
وخرجت إليه عرائس البحر يلتصقن ببعض حديثه الحلو ! منذ
ذاك المساء صمت ولم يسمع منه أحد كلمة !
أتراني لو عرفت الوجودية حقاً والوجوديين ، أما كنت
لزمت الصمت ، الصمت العميق ؟

هزار و هجری

إنّا كنت في باريس ، ومررت بفرق الطريق بجي (سان
جرمان دي بري) ، أمام مقهى (الفلور) فأنت لا بدمتوقف
طويلاً أمام ذلك المقهى ، ذي الكراسي المصفورة ، من الخيزران ،
وانت لا بدتحملق في عتمة زاوية معينة فيه . . . ولعلك ما كنت
لتمر بذلك المفرق إلا لتقف الوقفة الطويلة التي يتوقفها
الكثيرون هناك ، وإلا لتحملق في تلك الزاوية المعينة في

المقهي ، فثمة وراء دخان اللفافة الصاعدة النازلة نظارة تحلم
تحت شعر أذكن غير مرجل ، ورأس مستدير عبل يقوم فوق
جسم عبل ... ذلك « جان بول سارتر » إمام المذهب
الوجودي الجديد ، والنجم الذي نذر لكاتب أو فيلسوف ان
عرف الخط البياني لشهرته ما عرف خط سارتر من صعود
سريع ، ومن ذكر متصل في الصحف . انه يحتل منذ سنة
١٩٣٨ المكان الذي كان يحتله جيد حوالي ١٩٢٠ .

وايست الوجودية مذهباً فلسفياً فحسب ، ولو كانت
كذلك إذن لقبعت مع الحالمين في الابراج ، كالعناكب ، أو
لظلت حبيسة في أحرف الكتب الدقيقة السوداء ، لكنها طرز
من الحياة يحاول ان ينزل ايضاً الى الشارع ، ويدخل عليك
نخدعك . هي فلسفة لم تكتمل حدودها بعد ولا اسسها (وهل يمكن
أن تكتمل ؟) . ومع ذلك فإن باريس التي تمنح كل مذهب حياة
وحرارة ، ويتحول فيه الفكر بسرعة الى العمل ، وتجذبها كل عقيدة
مهما تعقدت مفاهيمها ، سبيل الانحدار السهل الى انصاف المثقفين
وسبيل « التعوم » بن العامة .. باريس هذه جعلت من الوجودية
بدعة الساعة . وهؤلاء الشبان الكثر الذين يطوفون حول سارتر
اليوم ، كالشعب المحترقة القصيرة العمر ، هم « الوجودية »
متمثلة من دم ولحم وعظام وانفاس . وإنهم ايبرزون للعين
دون بحث « ولتعرّفهم في لحن القول » ! فهم منتشرون على
الدروب بين « سان ميشيل » و « سان جرمان » ويلوؤون

مقاعد مقهى « الفلور » و « بور رويال » ، ويعيشون في الليل
 بكهف « تابو » و « كلوب سان جرمان » ، فاذا كان اليوم
 الثاني ، شهدهم برج كنيسة سان جرمان المربع ، المسود ،
 المثل على الساحة ، يبرزون ازواجاً وزمرراً الى اماكنهم
 بالامس : هذه الفتاة جمعت شعرها كالغلمان تمر أمامك ، إنها
 أيضاً ترتدي السراويل ! وذلك الغادي بعيداً ؟ أهو شاب ؟
 بلى ! ولكن ما ذلك اللون الاصفر المخطط لستوته ؟ وما ذلك
 الشعر المسترسل ؟ وهؤلاء جماعة يضحكون وهم دخول الى
 المقهى تختلط فيهم الاحي المعفاة بالحدود الطرية ، والكتب المهمة
 بالمعاطف المتراكمة .. وهنا أمام فضول الاعين منظر عابث كم
 تكرر : زوجان من البشر لا يحتلسان القبلة اختلاصاً ، ولكن
 يتساقيانها روية روية ... ويسقط عن كتف الفتاة الى الارض
 كيسها ، ذلك الجراب الذي حشرت كل حوائجها فيه ، في
 انتظار المأوى الذي قد يتاح لها ، وقد لا يتاح في الليلة المقبلة ...
 ولا تثير هذه المشاهد في الباريسي أي فضول ! لقد اعتاد أن
 يتسامح مع اصحاب « الحلي اللاتيني » ، في الذي يبتدعه من
 نخل . واجداد هؤلاء الوجوديين الفوا مرة زمرة « الانكروايابل »
 في اعقاب عهد الارهاب . كما مشوا على نفس هذه الدروب ايام
 الابداعية و (جورج ساند) و (موسه) ، ورقصوا مع الرمنين
 حول الفتى رامبو ، وحول بودليير في نهاية القرن الماضي .
 وهؤلاء هم الاحفاد اليوم . ولكنهم جميعاً من صنع سارتر

حقاقهم المذهب الوجودي في قصصه ومسرحياته ، وفي
محاضراته التي قل من فهمها منهم ، ولن أقول في كتبه ...
لا ..! فقد يندر فيهم من فتح صفحاتها الاولى ! ومع ذلك
فهم « وجوديون » وفيهم اشباه « انطوان روكانتان » واتباع
« أورست » ومقلدو « ماتيو دولا رو » وانداد « مارسيل » (١)
وتحس فيهم حرارة الحياة ، وهم يجادلونك دفاعاً عن وجودهم ،
بالرغم من انك قد تدور معهم احياناً في فراغ الكلمات ...
لست لأشرح هنا الفلسفة الوجودية ، فهي عزيزة علي .
وقد كنت اشعر انها قطعة مني قبل ان اعرف سمها ، ولكن
سأحكي حواراً وقع في زاوية مظلمة من مقهى « تابو » في ليلة
من ليالي الصيف الماضي ، بعد منتصف ذلك الليل ... كان
الجو يحنق بالدخان المعقود ، ولحن « السوينغ » يعزف بقوة
وعنف ، فيشير الارجل عن الارض ثم يهوي بها هويًا نظماً
عجولاً . واجسام الرافضين تقبل لمتدافع وتبذافع لتقبل .
وانفرد بين الجميع راقصان احتلا الحلبة . فاما الفتى فقد كان
يلبس حذاء من المطاط العادي ، واما الفتاة فقد حسبتها :

مجنونة ... والحسن لم تكتمل

فتمتته إلا ببعض الجنون !

ولكنني انسيتهما حين لفت نظري في جوارى ، فلم يجري

(١) هم ابطال سارتر الذين قد فهم في رواياته : « الغثيان »
و « الذباب » و « طرق الحرية » .

على الورق ، ويد ناعمة سكرى تسرع في التقاط المنظر الراقص .. ثم تلقي به إلى ..

قالت : - اكرهه ! خذه عني ايها السيد الذي اجهم—له
واكرهه ايضاً . هل قرأت « الغيثان » ؟ أتذكر ماذا اوحى
منظر اشجار الحديقة العامة الى « انطوان » لما بدأت تثبت
« وجودها » امامه ؟ .. الغيثان ! اتعرف ! هذا ما توحى به
انت .. ما يوحى به كل شيء لي الآن !

ولم اكن متأهلاً لعراك فلسفي مع شفة سكرى ،
ففضلت ان اسمع ، ولكن باقي الحديث اتجه الى صاحبها الذي
كان يقرأ من خلال حية خفيفة شقراء :

- الجحيم هو « انتم » الآخرون !... ان الارتباط بكم
يشيرني ويميت « وجودي » !

- يا طفلي !.. كان يجب الا تقرئي سارتر . إنه لا يلمق
بحساسيتك المفرطة . كان يجب ان انبهك الى ان ديكرت بدأ
بالشك ليصل الى اليقين ، وكذلك وضعنا سارتر في « الغيثان »
امام كل اسباب اليأس ليصل من ورائها الى سبب يبور الحياة ..
ولم تع الفتاة كلماته الاخيرة ، لاني رأيتها تغيب فضلة كأسها في
فمها وتحج عازفي « السوينغ » بشدة . اما هو ، فأردف دون
أن يتوقف :

- تخطين يا طفلة ، اذا تصورت ان في الذي قرأته نظرية
فكرية . ان سارتر لم يقصد اكثر من التعبير عن تجربة هامة !

إنه لا يبرهن ، ولكنه يبين . وكل همهم ان يضعنا فقط ، وجهاً
لوجه ، امام وجودنا الانساني الذي لا تبره اية ضرورة .
إننا نريد ان نشعر ان العالم الذي حولنا والذي نحن معه ، إنما
قام على منطق معين وغاية مرسومة ، وهو لا يستطيع إلا
أن يكون ويوجد ، بل لا يستطيع إلا ان يكون كما هو ..
والكشف الذي أتى به سارتر هو أن العالم والانسان يوجدان
للشيء ...

وضاعت بنية الحديث عني ، ذلك ان بهـلواني الرقص
كانا قد عادا الى الحلبة واستدارت الفتاة حول فتاها دورات ثم
إذا بها على ظهره وإذا بساقيها تتمان الرقصة الصاخبة في الهواء
الاسود ..

حين ملأت الصخب عدت الى وصل ما انقطع :
- وأي قيمة إذن للانسان ما دام ليس ثمة من شيء
خارجي عنه يجعل له قيمة ؟

- ذلك يا طفلة ! انه هو نفسه قيمة ذاته . إن تصرفاته لم
تقرض عليه لا من نظام إلهي هبط من عل ، ولا من نظام
عقلي صاغه من اعماق ذاته أو تلقاه من خارج ذاته ، فهو حر أو
يجب ان يكون حراً . فمن حريته يولد معنى حياته « ان الحياة
تبدأ في الطرف الآخر من اليأس » !

وسمعت في هذه اللحظة قرقرة كأس تتحطم في يد احدي
البائسات .. ولكن ذلك لم يقطع عني الحديث :

- فانا إذن « وجودية » الى الصميم . لا فروض الله ولا اوامر الاخلاق ولا الماضي ولا الالهواء ولا البيئة الاجتماعية تفرض على تصرفاتي . . هذا « جراي » معي دليل حقيقي .
ألست تقصد ان الحرية هي ان لا يكون للمرء من جذور تأمره ؟

- إنها اعمق قليلا بما يبدو لك يا طفلة . . انت كالشوندرة تخرج من الارض وجذورها معها ، ولكنها تظل في قبضة مقتلعها . ان الحرية هي انعدام التقيد . بحيث تكون كل لحظة من لحظات الحياة الانسانية مجال اختيار . إنها ليست محصورة في نوع معين من العمل ، ولكنها النسيج المشترك الذي لا يمكن ان يكون للوجود معنى بدونه . . والذي يشعرونا امام كل عمل ان باستطاعتنا ان نقوم به او لا نقوم . .

- انك تحاول ان تبديل الهزيمة امام القدر ظفراً ! . .
- قد يكون ذلك . . قد يكون ذلك يا طفلي . . وقد يبدو ان حرية الانسان على هذا النحو مستحيلة ، أو على الاقل فكرة تجريدية

فهل يابق الانسان من ملك ربه

فيهرب من ارض له سماء ؟

وهل يمكن تصور انسان مجرد لا يمسك به طابع تاريخي او اجتماعي او نفسي او فكري . . ولكن جري ان تفهمي هذه الفكرة البسيطة وهي ان وضع الانسان يجب الا يكون

بالنسبة اليه قيلاً بل مكان اختيار حر بين مختلف الاعمال .
هنا طريق النصر !

ولم يكن يبدو على الطفلة انها فهمت حين زمت شفقتها
والقت الى الارض بصورتين رسمتها بينا صاحبها يتكلم ...
واحدى الصورتين رسم لمار بلحية شقراء ! . وقد انصرفت
دون ان تودع وجراهما يتر على كتفها !

* * *

لو خيرت لاخترت ان احمل جراحي وألحق باولئك
« الاحرار » الضائعين بين اربعة الدروب وعممة الزوايا .

نأسر على الماخني

من اغذيتي اليومية ، وما اكثر هذه الاغذية التي اسمم بها
كيما في واتناولها : من الارض ، ومن الله - الهي انا - ومن
الفقر ... من اغذيتي اليومية ان اقرأ قصص الثائرين ، واعيش
في لحظة من اللحظات حياتهم الراقصة كالشرر الشرس ،
وارى كيف اندلق اللهب الاقدس في دمائهم ، وماذا وصوس
التمرد من اللحون في آذانهم وفي القلوب . ولست اقول في

العقول ، لان العقل اشبه بالاله ابولون ، او بعمامة جدي ،
هم ان يسهر على النظام الرتيب ، وعلى التكرار الوقور ...
هو اي أنا مع وثبة الطفل ، ومع بروميثوس والمغضوب عليهم
من رعيه اللعين !

وهذه صورة تأثر كنت افتش عن ملاحه امس « فيليمبو

مارينتي ؟

هو ايضاً الي يمن تغسلهم كل صباح شمس البحر الابيض
المتوسط الدافئة المشرقة ، وهو زميل لدانوتزيو ولبيرانديلو ،
ولكنه لم يحظ بالابهة التي طوقت الشاعر دانوتزيو في الادب
الايطالي الحديث ولا عرف الشهرة التي ادخلت الروائي.
بيرانديلو الى بيت كل اديب ، وهو اخيراً نبي ثورة شاملة
عميقة سماها « التطلعية » (١) ولكنها حين جاوزت حدود
ايطاليا نسيت ، ولبست لدى الناس اسماء اخرى : التكعيبية ،
الداجية ، الخلقية ، التلقائية ... ذلك انها لم تكن ثورة فنية
فقط وان بدأت في الفن ولكنها كانت ديناً كاملاً مع كل
الظريات المتممة له : في السياسة والاجتماع وفي علم النفس
والاخلاق وعلم الجمال .

ارتسمت الخطوط الاولى لهذه الثورة في مطالع هذا القرن
وفي صحيفة (لاشيربا) وهي حسب رأي اصحابها تستوحي

Futurisme (١)

« سورمان » نيتشه، وليست اكثر من تطبيق له ، على طريقة
واغتر ، ضمن نطاق التقدم المادي الحديث المادي لهذه الحضارة .
وعقيدة الحركة التطوعية تقوم - كما ينبغي - بذلك اسمها -
على عبادة المستقبل لسبب وحيد هو انه المستقبل وانه سيكون
مجال التقدم المعبود ! وكل ما سبق ان وجد وكتب وصنع
في الناس الى اليوم ليس - في عيني مارينتي - اكثر من كومة
مقرفة من الاقدار المتعقنة تحمل طابع عبادة الماضي .

« احذروا كل شيء من الماضي احقير واملوا كل شيء من
المستقبل ولتكن لكم ثقة في التقدم وسواء كان هذا التقدم
حقارة او اجراما او سرقة او لهيبا فماذا يهمكم من امره ؟ فالحق
دوماً مع التقدم حتى حين يكون مخطئاً ! »

وباسم هذا التقدم وهذه القابليات الجديدة في حياة المستقبل
وفي الفن خاصة ، يعلن مارينتي حرباً لا هوادة فيها على المثل
العليا العتيقة ، وعلى كل العبقريات القديمة ، وعلى كل البناء العقلي
للانسان ! « هدفنا - كما يقول - محو عبادة الماضي . هل فكرتم
في جيش العبقريات المرحومة التي يعتبرونها خالدة والتي تحقق
كتيبة العباقرة الاحياء ؟ نعم ! القبور ترحف دوماً علينا !
والاحياء يعيشون ابدآ في قبضة الاموات . في كل يوم يقتل
الناس شاعراً حياً اذ يقدفون فوق رأسه بمومياء شاعر كبير
فارق هذه الدنيا منذ خمسة قرون ! »

هذه الرغبة في تحطيم كل حضارة الماضي تسوق التطلعين

الى تهديم جميع المؤسسات السياسية والاجتماعية » فالنظام
البولاني طريقة مهترئة من الحكم « مثلاً والتراث الماضي يجب
ان يرسل للمحرقة ! » تعلموا - كما يقول مارينتي - فكره
المكتبات والمتاحف ! » وسيأتي اليوم الذي يندثر فيه الحب
للحبيبة والزوجة والولد على السواء .. فالحب نفسه ايضا من
مبتكرات الماضي ومن قيوده الدامية !

وليست التطلعية - في نظر مارينتي - حلماً او مثلاً أعلى
ولكنها الواقع نفسه الذي ينتظرنا فيجب ان نجرأ على ان ننظر
اليه ويجب ان نساعد على الوصول بان نتوق له وان نريده
لانه هو قدرنا المقبل ولا يمكن الا ان يكون .

* * *

وبعد ، فهذه الثورة ، يا احبابي الثائرين عتيقة ! لقد
اوحى بها ذلك التفاؤل الذي عم العالم في مطلع هذا القرن
بنتيجة التقدم الآلي . ومارينتي ما قصد بهذه الثورة سوى
عبادة الآلة ! « انا نجد الوقت الذي يلمس فيه العامل ذو الوجنت
المسودة بالفحم ، حديد آله بنفس المدة التي يدغدغ بها العاشق
اليوم صدر حبيبته ! وفي « البيان التطلعي » الذي اصـدـره
مارينتي اول مايس ١٩١٣ يقول : « انا نشعر بلذة لا توصف
في ذلك الحليط من اصوات التوام وضجيج السيارات وزعيق
الفاطرة . انه يلذنا اكثر مما تلذنا السفونية الريفية او سمفونية
البطولة ! » .

ولكن عصر تمجيد الآلة قد مضى ! ولهذا كانت هذه
الثورة عميقة المبادئ وما يبقى منها هو فقط ثورتها على الماضي
والحاضر . اما الثورة التي نتطلع اليها اليوم ، فهي تلك التي
تثور .. حتى على المستقبل !

مرآة أمام لوحة

لست اذكر - على الضبط - مع من كان هذا الحوار
ولا ايان كانت تلك اللوحة ، فالارجح انه لم تنفرج عنه شفتان .
وان اللوحة لم توجد ، او لعل الحوار كان ، ولعل اللوحة
وجدت ولكن ... اما في معرض (بيكاسو) في باريس حيث
وقفت اسأل شيئا كان يحدق في الخطوط المبعثرة والالوان

عن السر الذي يبحث عنه !.. واما في غندول على القناة الكبرى
في البندقية ، ناقشت فيه ذات امسية ، فنانة مرحة كانت تدافع
عن خلود فن (براك) وهي تعبت بشعر صديقها الصامت !.
واما اخيراً ، هنا في دمشق ، وفي بعض معارض التصوير ، إذ
تقدمت إحداهن تسألني في نوع من التحدي ، عن هذا الذي
يدعونه ، كما قالت (مرياليه) .

لست أذكر مكان هذا الحوار ، ولا زمانه ، ولا اشخاصه ،
ولكن اصداءه ما تزال تهتز في مسمعي :

قال محدثي :

- نخيل إلي ان هذا العصر قد اضاع شخصيته الفنية . ليس
ثمة من طريقة - ام ، او مذهب - قطب يدور من حوله
المبدعون . ليس ...

- عفواً ! تريد أن تقول بالتمقيد الفني ، وبان انتاج كل عصر
هو صورة له ، أو يجب ان يكون صورة له ، وان هذا العصر
لم ينتج صورته بعد ! !

- اجل ! بمعنى من المعاني !.. فهذا الجو الفني اليوم محموم
قلق تتزاحم فيه (التكعيبية) مع امها الانطباعية (وتضطرع
(النطاعية) مع وبيبتها (السريالية) ومذهب (الوحشية)
مع المذاهب القديمة من (طبيعية) و (رومانتيكية)
و (كلاسيكية) . انا لم نعد نعرف ، على الضبط ، ماذا يريد
الفنانون ولا الغاية التي يركضون اليها !

- لعلك ستسكلم ايضاً عن الخلود ، ذلك المشـل الاعلى العتيق الذي يسحق وجود الانسان في سجنه ! ولعلك ستقول لي ان الفن الكلاسيكي هو وحده الخالد ، او على الاقل اكثـر خلوداً من هذه الرقاع المصبغة ! ..

وانقطع الحديث ، هنا لأن جماعة صاحبة زحمتنا على اللوحة التي كننا نستوحىها ، ووقفت تستوحىها هي ، قال احدهم :
- المؤلم اننا لم نعد نعرف « هوية » اللوحة ولاي مدرسة هي ؟ واحسب اني في كثير من الاحيان امدح هذا واقدح ذاك بالتقليد . وان كنت ابذل جهداً كبيراً لافهم !

وقالت فتة بجانبه :

- منذ قليلـل كان صاحب الصورة هنا يشرح مذهبه (السريالي) .. واحسب انه من الضروري ان يعلق نفسه بجانبها ليشرحها دوماً . على اني اذكر من كلامه المبادئ العامة فقط قال : ان السريالية ثورة شاملة لا تقتصر على الفن ولكنها تهاجم الدين والعائلة ايضاً وكل المؤسسات الاجتماعية على السواء .
- انها بذلك تؤدي الجزية المفروضة على كل مذهب ثوري ! ولم تأبه الفتاة لهذا الذي مر فقطاطها بزاحه وانصرف فظالت تقول :

- ... واعتقد اني اؤمن بالسريالية كمذهب فكري ...
- دعينا من المبادئ والفكر ، ولننظر في انتاجها الفني !

أنا قرأت تعاريف السريالية في كل مكان : في (البيان السريالي)
وفي (المعجم المختصر للسريالية) وفي (دائرة المعارف الفلسفية)
واذكر ان زعيمها بريتون ... اندره بريتون ، يرى السريالية
فعالية نفسية خالصة حرة ، تعبر بمختلف الوسائل عن الطرق
الحقيقية للعمل الفكري .

ان الفكر ، كل الفكر الواعي ، وغير الواعي ، يلي ذلك
التعبير ، ولكن ليس للعقل ان يراقبها ، وليس من الضروري
ان نتم فيها بأى هدف « بديعي » أو « اخلاقي » أليس هذا يعني
ان السرياليين يعتقدون ان « الحلم » هو المبدع الاعلى ؟ انهم
لا ينكرون ذلك ويصرحون ان اطلاق العنان للفكر كما يشاء
هو قمة الابداع ! انا لا استطيع في الواقع ان اقبل كل هذا ...
ولم تفهم الفتاة من كلامه ، على ما يظهر ، الا فكرة الحلم ،
فانها قالت :

— إذا كان الفن وجد لتوسعة الحياة ، أفليس جميلاً ان
تكون حياة الانسان حلماً متصلاً ؟ وهل تستطيع ان تنكر
سلطان الخيال ؟ « ان الخيال الحر هو وحده الذي يعطيني ما
يمكن لا نصرف اليه بكليتي دون خوف من الزلزال !... وان
الفكر الذي يفرق نفسه في هذه السريالية يعيش من جديد اجمل
جانب من حياة طفولته .. » !

وتأمل الجميع من الحديث الفكري الذي طال ، إلا واحداً
منهم تنطح فقال :

— لا ! لا ! هذه انهزامية وهرب ...

وثار ضجيج بعيد شغلني عن الحديث ، وضاعت الكلمات فيه . فلما ران الهدوء ، ثبت الى نفسي والى المتحدث فاذا به يقول :

— إني لا اعتقد مطلقاً ان من حق كل انسان ، ان يعرض علينا هذا السخف الخايط من اللون بالتهاول ، ويدعى ان ذلك (حلم) . انا اقبل من المذاهب الفنية ما كان علمياً
الانطباعية والتكعيبية مثلاً تقومان على مبادئ صحيحة ثابتة .
فأنا ارضى بتحليل الواقع الى بقاع الوان ، وتحليل اللون الى مركباته الاصلية ليمتزج في العين نفسها . كما اوافق على تجريد عالم المادة من مرونته الطبيعية ، ومن خطوطه المستديرة وسبكه في قالب الخط المستقيم .. اعتبر هذا امراً علمياً وعلمياً جداً !

وتدخل متعالم امامه فقال :

— لا شك ان هذه المذاهب جميعاً ، إن هي إلا اثر من آثار التطور العلمي الحديث . ان العلم نفذ الى حرم الفن وفرض عليه مكتشفاته . وبهذا الشكل سابر الفن منطق الحياة الحديثة !
وحاولت الفتاة العودة للحديث ، ولكن واحداً من الجماعة مهمل الشعر ، حالم العين .. كأنه فنان سبقها ليقول :

— ولم لا نرى ان هذه المذاهب اثر من آثار التحرر ونوع من الثورة ؟ ولم لا نرى ان هذا العصر الذي آمن بحق المبدع

في ان يثور - على طريقته الخاصة - هو الذي سمح لهذه المذاهب بالتعدد والتلون ؟ أليس اعنى ما في هذه الحضارة الحديثة انها تقوم على انماء ونأييد (فردية) الانسان ؟ وانصرف الجمع يثرثر بعيداً أو لعلنا نحن الذين انصرفنا عنه لنثرثر ، ولكن لا في حوارنا الاول فانه قد نسي ، واتصل باقيه بكلام الجماعة

- اي منبع للثروة والابداع .. هذا الانسان .

- واي منبع للسخف ايضا !

وبرم محدثي شفتيه بعد هذه الكلمة !

- إذا نحن استعرضنا مختلف الانتاج السريالي ، في الادب أو التصوير خيل البنا انا في مخبر واسع للتجارب النفسية اكثر منا في معرض للفن وقد يثير فينا بعض ذلك الانتاج مشاعر « بديعية » ولكن ذلك امر عارض . اجل ! ان الحلم يفتح لنا ابواب الروائع . ولكن ألت ترى انه ما كل الاحلام برائع ؟

... -

- ويرفض السرياليون تنخل وتنقية ما ينتج -ون ! انهم يحاولون ان يحلو الفعالية النفسية الحرة محل الابداع الشعوري الواعي ، محتفظين لانفسهم بوظيفة « الآلة المسجلة » . وما الذي يحلمانا على القبول بكل ما يقذفه اللاشعور وقبوله على انه عمل « بديعي » ؟

- انه التحدي الصارخ !.. اعرفك ثائراً . وهذا مذهب
ثوري لا افهم كيف تهاجمه ! أترى انه من الضروري دوما ان
نصب انفسنا في قوالب الطبيعة ، او نصب الطبيعة في قوالبنا ؟
لا ! ليس ها هنا اساس العمل المبدع ولكنه في « الحرية » :
حرية الخلق ، وحرية التعبير . ان الحرية هي وخطها كل ما
يشوق في الابداع . وهي اثن ما في الفن . . وما في الحياة
ايضا ، لانها هي وخطها الباقية !

* * *

لست اذكر مكان هذا الحوار ولا زمانه ولا اشخاصه
ولكن اصداءه ما تزال - برغمي - في مسمعي !

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين

الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين



دارالرواد للتأليف والترجمة والنشر

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 072574872